حوار مع أشعري

ويليه

الماتريدية ربيبة الكلابية

بقلم الدكتور / محمد بن عبد الرحمن الخميس

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع
لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد
الرياض

جميع الحقوق محفوظة للناشر ، فلا يجوز نشر أي جزء
من هذا الكتاب ، أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره
أو ترجمته دون موافقة خطية مُسبقة من الناشر .

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٥ م

ح مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، ١٤٢٢ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الخميس ، محمد بن عبد الرحمن
حوار مع أشعري ويليه الماتريدية ربيبة الكلابية /
محمد بن عبد الرحمن الخميس - الرياض ، ١٤٢٦ هـ
١٨٤ ص ؛ ١٧ x ٢٤ سم
ردمك : X - 50 - 769 - 9960
١ - الاشعرية ٢ - العقيدة الاسلامية أ . العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٥٩٥ / ١٤٢٦

رقم الإيداع : ١٥٩٥ / ١٤٢٦
ردمك : X - 50 - 769 - 9960

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع
هاتف : ٤١١٤٥٣٥ - ٤١١٣٣٥٠
فاكس ٤١١٢٩٣٢ - ص.ب : ٣٢٨١
الرياض الرمز البريدي ١١٤٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ - ٧١] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار [١] .

وإن السلف الصالح هم أسبق الناس إلى الخير ، وأقلهم تكلفًا ، وأعمقهم فهمًا ، وأعلمهم بالكتاب والسنة ، هم الذين ساسوا الدنيا بالدين ، والذين رضي الله عنهم ، وأمرنا باتباعهم ، ومن المعلوم أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها ، وهم سلفنا الصالح ، فأقول مستعينًا بالله :

---

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان النبي ﷺ يستفتح بها خطبه كلها ، رواها الإمام أحمد في المسند (١/٢٩٢ - ٢٩٣) ، وأبو داود (٢١١٨) ، والترمذي (١١٠٥) ، وابن ماجه (١٨٩٢) .

أولاً : من هم السلف ؟

السلف : هم الصحابة والتابعون ومن بعدهم من أهل القرون الثلاثة المفضلة الذين اتبعوا طريقهم كالأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة الدين والهدى .

ثانيًا : السلف كانوا على عقيدة واحدة :

لم يكن بين السلف ولله الحمد نزاع في مسائل أصول الدين ، بل هم متفقون في منهج التلقي ، والإيمان بكل ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة من مسائل العقيدة ، فهم متبعون لأصحاب النبي ﷺ حيث لم يسأل أحد منهم عن كيفية أسماء الله وصفاته ، وهم الذين سألوا عن اليتامى والأنفال والأهلة والخمر والميسر والحيض وغيرها من الأمور التي لا تدنو مرتبة العلم بها من مرتبة العلم بأصول الدين ، وهو معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ، ولو أنهم جهلوا معانيها أو مستهم ريبة في شأنها لسألوا رسول الله ﷺ ، ولا يسوغ أن نتصور أنهم سألوا عن الفروع كما سبق ، ولم يسألوا عن الأصول التي لا يفقهون معناها ، ولكنهم في الحقيقة قد فهموا هذه المعاني على وجهها الصحيح لكنهم فهموا كذلك التنزيه ، تنزيه الله تعالى عن الشبيه والمثيل ، ولم يروا تعارضًا بين إثبات معنى الاسم والصفة ، وبين تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه .

ثالثًا : لماذا عقيدة السلف :

لقد ذهبت الأهواء بالناس كل مذهب ، وتفرقوا في دينهم ، ودخل عليه كثير من البدع والعقائد الفاسدة ، ولكن لا يعصم من هذا كله إلا التمسك بعقيدة الكتاب والسنة عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين أهل السنة والجماعة الفرقة الناجية ، والطائفة المنصورة ، وذلك لما يلي :

الأول : إن الله تعالى شهد لهم برضوانه هم ومن اتبعهم فقال : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

الثاني : إن الله تعالى توعد بالعذاب من اتبع غير سبيل السلف الصالحين فقال : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] .

الثالث : أن النبي ﷺ أمر بالأخذ بسنة أصحابه فقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » .

وقد كان الصحابة والتابعون أسبق الناس إلى كل خير ، وأشدهم اتباعًا للسنة وأبعدهم عن التكلف والابتداع في الدين ، فلذا وجب على مريد الحق أن يسلك سبيلهم ، وينهج منهجهم ، حتى يلحق بهم .

لذلك فإنا نقول إن العقيدة السلفية هي الحق ، وكل ما خالفها باطل ، نعوذ بالله من الخذلان واتباع الهوى ، ونسأله التوفيق لما يحب ويرضى .

رابعًا : القرآن والسنة بيان لكل شيء :

ولقد قال الله تعالى في حق رسوله ﷺ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الجمعة : ٢] فدلت هذه الآية على أن الله تعالى بين للناس على لسان رسوله ﷺ كل ما يحتاجون إلى بيانه من مسائل أصول الدين وفروعه من الأحكام والشرائع والآداب وغيرها ، ولم يتركهم سبحانه وتعالى لأهوائهم وآرائهم أو لأقيستهم وتوهماتهم ، بل بين لهم كل ذلك بيانًا لا يسع أحد جهله ، وذلك تحققًا لقوله تعالى : ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء : ١٦٥] .

ولقد نشأت في الأمة الإسلامية بدع حمل لوائها أهل الجهل والهوى كبدعة التكفير بالذنوب ، وبدعة الإرجاء ، وشر البدع الكلامية بدعة التعطيل ، تعطيل الرب عما يجب له من الأسماء والصفات ، تلك البدعة الموروثة عن اليهود والصابئة ، والفلاسفة ، وكان الإمام فيها الجهم بن صفوان الذي تنسب إليه الجهمية ، بل

تنسب إليه كل المعطلة من هذه الأمة ، ومن فروع هذه البدعة : بدعة القول بخلق القرآن وهي التي امتحن أئمة السنة بسببها حين تصدوا بها بالمعارضة والنكير ، ومن البلاء أن هذه البدع لم تزل موروثة في الأمة ، فصارت الأمة بها فرقًا ، كما أخبر الصادق المصدوق كل فرقة تدعوا إلى طريقتها ، وتنافح عن مذهبها ، وإلى جانب هذه الطوائف كانت الطائفة المنصورة والفرقة الناجية ، والتي تترسم خطى السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، وهي الوارثة لعلمهم والسائرة على مناهجهم ، ولا تزال هذه الطائفة في الأمة ، كما أخبر الرسول ﷺ ، فلم تزل الخصومة بين هذه الطائفة والطوائف المبتدعة قائمة إلى يومنا هذا .

خامسًا : شبهات لبعض المخالفين لعقيدة السلف :

وقد زعم بعضهم أن أدلة القرآن خطابية تثير العاطفة ، ولكن لا تقنع العقل وأنها لا تفيد يقينًا ، ولا تفيد حصول الطمأنينة ، فابتدعوا لذلك استدلالات أخرى تخالف طريقة القرآن ، فلذلك قدموا العقل على النقل ؛ لأن أدلة النقل بزعمهم قطعية وهذا يلزم منه الكفر الصريح بكثير من الآيات القرآنية ، والكفر بأن محمدًا ﷺ ، بين الآيات وعلم الحكمة والكتاب ، وأن ما جاء به يزكي القلب والنفس والعقل ، وكل هذا أدى بهم إلى هجر القرآن ، ونبذ السنة وتمجيد البدعة ، ولا شك أن هذا من أشد البدع فتنة وفتكًا باليقين ، وزعم الذين ابتدعوا ذلك المنهج أن تعلم هذه الطريقة هي أول واجب على المكلف ، فقالوا بأن أول واجب على المكلف القصد إلى النظر أو النظر أو الشك وزعموا أن من لم ينتهج هذه الطريقة فليس بمؤمن ، وهذا ما حدا ببعض غلاتهم إلى أن كفروا عوام المسلمين لعدم سلوكهم هذه الطريقة في الاستدلال .

واستطاعوا أن يسيطروا على عقول الكثير من الناس بسحر دعواهم التي يزعمون فيها أنهم على عقيدة أهل السنة والجماعة ، واستطاعت كتب متأخري أهل الكلام أن تستحوذ على عقول كثير من المنتسبين إلى العلم ، حتى ساد القول (إن العدول عن مذهب الأشعري ولو قيد شبر كفر ، ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر) .

فجثم على صدور وقلوب أجيال خلال قرون متطاولة ، وحرم على طلبة العلم أن

يستقوا عقائدهم من القرآن والسنة ، وبلغت الصفاقة والوقاحة بأولئك إلى أن قالوا : (طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم وأحكم) ويكفينا مقولتهم هذه دليلًا على مباينتهم لمنهج السلف وعدولهم عنه .

والحقيقة أنني أعجب من أولئك الذين يدعون الإسلام ، وهم يزعمون أن فن الكلام أسلم وأحكم وأعلم وأعلى من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ .

بل إنهم جعلوا من كلام الرازي والآمدي والغزالي والنسفي والإيجي والماتريدي وغيرهم من أساطين الكلام جعلوا من كلام هؤلاء حاكمًا على كلام الله ، بل لا أدري كيف ساغ لهم أن يجعلوا العقل وهو المخلوق القاصر جعلوه قيمًا على الله تعالى وأسمائه وصفاته .

سادسًا : نصيحة باتباع منهج السلف :

في الحقيقة فأنا أوجه هنا سؤالًا لكل من سوغوا الانحراف عن عقيدة السلف ومنهجهم وهو : هل منَّ الله علينا بنعمة العقل لكي نتخذه وسيلة إلى سب الله تعالى وشتمه ، والتطاول على مقامه الجليل ، ثم أي فرق بين ما دعا إليه هؤلاء وبين ما عليه إبليس حينما دعاه الله إلى السجود لآدم ، فأبى واستكبر وكان من الكافرين ؟

لقد آن الأوان لأولئك كي يرجعوا إلى الطريق القديم ، ويسلكوا الطريق المستقيم الذي سلكه سلفنا الصالح في الدعوة إلى الله ، فهدوا بالقرآن العرب والعجم ، ووجدوا له آلاف الأنصار المؤمنين به المقاتلين في سبيل إعلائه ، وذلك من بين أهل الملل المختلفة ، والثقافات المتباينة .

فإن السلف الصالح قد نجحوا في الدعوة إلى القرآن ، ليس بين العرب فقط ، ولكن بين غيرهم كذلك من أهل اللغات والثقافات الأخرى ، بما أصبح مثلًا يحتذى ، ونموذجًا يدرك ، وأساسًا لكل انتصار ، ولا يقولن أحد أن طريقة السلف لا تصلح لهذا الزمان ، زمان الحضارة والتقدم ، ولا تهدي إلى الغاية ، إن من يقول بهذا القول يجب عليه أن يقر بالحقيقة التي حاول هو خنقها حتى لا تنفضح ، ولكنها تقهره ، وهذه الحقيقة مضمونها عدم الإيمان بالقرآن ، ولا بمن أنزل القرآن .

آن الأوان لكي نقاوم التيار الجارف من أمواج البدع والإلحاد نقاومه بجيش مدرع ومسلح بأسلحة القرآن ، من عقائده وبراهينه واستدلالاته ، فبهذا الجيش القوي نستطيع أن نفتك بكل بدعة وخرافة ، بل سوف تنفتح قلوب الخلق جميعاً للإسلام على اختلاف أماكنهم ولغاتهم وثقافتهم .

إننا غدًا موقوفون بين يدي الله سبحانه وتعالى ، وإنه سبحانه وتعالى سائلنا عما قضينا به لأنفسنا وللناس في أمور العقائد والإيمان ، وهل اتبعنا طريقة الرسول وأهل الإيمان ، أم سلكنا طريقة إبليس وأهل الشك والنكران والطغيان من أهل هذه البدع .

إن الأمر جد خطير ، وإن وراءنا يوم عظيم الهول ، فالبدار البدار ، والرجوع الرجوع إلى الله قبل فوات الأوان ، وقبل أن يقول القائل : ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ فيقال له : ﴿ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١٠٠] حتى لا يذاد المبتدع عن حوض النبي ﷺ ويقال له : « سحقًا لمن بدل بعدي » .

لذا رأيت حاجة ماسة لكتابة هذا البحث الذي هو بعنوان : « حوار مع الأشعري » ، أما موضوعه فهو المسائل التي انفردت بها الأشعرية والماتريدية عن أهل السنة والجماعة ، وأهل البدعة من المعتزلة وغيرهم ، فلم يقل أحد قبل الكلابية الأشعرية أن الله يرى بلا إثبات العلو ، وأن الله يتكلم بالكلام النفسي ، فأحدثوا قولًا ثالثًا بين القولين ، ومذهبًا ملفقًا بين مذهب أهل السنة والجماعة ، ومذهب أهل البدعة .

ويتألف هذا البحث من : تمهيد ، وأربعة فصول ، وخاتمة :

فأما التمهيد فهو : لمن أوجه مادة هذا الحوار .

وأما الفصل الأول فهو بعنوان : التعريف بالأشعرية إجمالًا وبيان موقف السلف من علم الكلام ، وفيه إحدى عشر مبحثًا :

المبحث الأول : التعريف بالمذهب الأشعري إجمالًا .

المبحث الثاني : علم الكلام الأشعري بين القبول والرفض .

المبحث الثالث : تحريف الأشاعرة لكلام الأئمة في التحذير من علم الكلام .

المبحث الرابع : موقف أئمة السنة من سلف الأشاعرة .

المبحث الخامس : موقف أئمة السنة الذين عاشوا قبل ابن تيمية من الأشاعرة .

المبحث السادس : موقف علماء السنة الذين عاشوا بعد ابن تيمية من الأشاعرة .

المبحث السابع : توبة أبي الحسن الأشعري من علم الكلام .

المبحث الثامن : انقطاع الصلة بين الأشعرية والأئمة الأربعة في كثير من الأصول .

المبحث التاسع : متابعة الأشعرية لمذهب المعتزلة في بعض الأصول .

المبحث العاشر : حيرة بعض علماء الأشاعرة واضطرابهم .

المبحث الحادي عشر : نصيحة تائب من علم الكلام الأشعري .

وأما الفصل الثاني : حوار حول دعوى الأشاعرة من أن الله ليس داخل العالم ولا خارجه ، ويشمل تمهيد ومبحثين :

أما **التمهيد** فهو : بيان أن النصوص الشرعية متواترة في علو الله تعالى على عرشه .

وأما **المبحث الأول** فهو : في الرد على الأشعرية في دعواهم أن الله لا داخل العالم ولا خارجه .

وأما **المبحث الثاني** : ففيه ذكر شبه الأشعرية في صفة العلو ، والرد عليهم .

وأما الفصل الثالث فعنوانه : حوار حول دعوى الأشعرية أن الله يرى بدون إثبات صفة العلو ، وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

أما **التمهيد** : ففي بيان تواتر الكتاب والسنة وإجماع الأمة على إثبات الرؤية .

والمبحث الأول : عرض أقوال الأشعرية والماتريدية في مسألة الرؤية .

والمبحث الثاني : الرد على الماتريدية والأشعرية في مسألة الرؤية .

والمبحث الثالث : بعض شبهات الأشعرية والماتريدية والرد عليها .

وأما الفصل الرابع : حوار حول دعوى الأشعرية : أن الله يتكلم بكلام نفسي ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الرد على الأشاعرة والماتريدية في قولهم بالكلام النفسي .

المبحث الثاني : نقض حجج وشبه من قال بالكلام النفسي .

وسأقف من عقائد الأشعرية موقف الحياد والإنصاف ، فلا غلو ولا تقصير ، ولست أخاطب شخصًا بعينه ، وإنما ما سطر في كتبهم مما يخالف النصوص الشرعية وعقيدة السلف ، بل أسأل الله للأموات منهم المغفرة ولأحياء الأشاعرة الهداية والتوفيق والسداد .

ولا شك أن القارئ الذكي الفطن ذا الفطرة السليمة والعقل السليم فضلًا عن المؤمن المستنير بنور الوحي يدرك فساد هذه الآراء والمذاهب والاصطلاحات الدخيلة ، فلو أفنى الرجل عمره في قراءة كتب علم الكلام والبحث ما احتوته ، لخرج منها بالحيرة والأسى على ضياع العمر دون طائل يتمنى أنه لم يخض في غمار تلك الموروثات ، وفي بحر ذلك العلم الذي سموه علم الكلام .

فلم يفهم أهل الكلام من نصوص الصفات الشرعية إلا بما يليق بالمخلوقين وهذا من خلاف ما فطر الله عليه العباد من أنه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، لذا قالوا بالتأويل الكلامي لتكييف الصفة ، بينما كان منهج القرآن والسنة هو إثبات وجود الصفة كما وردت لا إثبات كيفيتها ؛ لأن الكيف هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، فترك الوحي واتباع الرأي والتأويلات الفاسدة عزل للكتاب والسنة كمصدرين للهداية في واقع الحياة ، وليس بعد الهداية إلا الغواية قال تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس : ٣٢] .

وأهل الكلام الذي يتهمون أهل السنة بالتشبيه والتجسيم هو اتهام باطل شنيع ويلزم منه القول بأن الله تعالى أنزل لعباده نصوصًا في القرآن ، يحرم الأخذ بظاهرها دون أن يرشدهم إلى تحريم ذلك ، ودون أن يعرف رسوله والمؤمنون كيف يفسرون هذه النصوص ، وكيف يفهمون معانيها الحقيقية ، وذلك لأننا لا نجد في القرآن والسنة ما يحرم الأخذ بالظاهر ، أو يوجب التأويل الكلامي ، وهذه اللوازم التي

يدعونها لا تلزمنا نحن ، وإنما يلزم من أخبرنا بهذه الأسماء والصفات ، وهو الله ورسوله ، فهل يجرءون على رمي الله ورسوله بما يرموننا به سبحانك هذا بهتان عظيم .

إن مقتضى كلام المعطلة من الفلاسفة أن الرب عدم محض ليس له اسم ولا صفة واتحادية الصوفية جعلوا الرب عين كل شيء ، فهو كل كائن حتى فرعون وإبليس هو الله ، تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا ، وحلولية الصوفية جعلوا الله في كل شيء فهم أخبث من النصارى ؛ لأن حلول النصارى مقيد وحلول هؤلاء الزنادقة مطلق .

ومقتضى مقالات أهل الكلام من المعتزلة والماتريدية والأشعرية أن الله تعالى لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل به ، ولا منفصل عنه ، ولا فوق العالم ولا تحته ، ولا خلفه ولا أمامه ، ولا يمينه ولا شماله ، فوصفوا الله بصفات معدوم محض ، بل بصفات ممتنع بحت ، ولهذا يسميهم شيخ الإسلام أهل الجحود والإنكار ، وبسبب تناقضهم واضطرابهم يلزمهم أن الرب تارة موجود ، وتارة معدوم ، فبعضهم يثبت له صفات ينفيها آخرون ، وتارة يثبت له بعضهم صفات وجود ثم يعود فينفيها ، وهكذا فهم مختلفون في مقالاتهم ومتناقضون ، وكلهم يدعي أن صريح العقل معه .

والصواب الذي عليه أهل الحق أن النصوص الشرعية لم تأت بمحالات العقول ، وإنما أتت بمحارات العقول ، فالعقول قد تتحير في تفسير شيء ، لكنها لا تحيله ، ولا يمكن وجود تناقض بين صحيح النقل ، وصريح العقل ، والواجب على العاقل أن يقف عند حدود ما ورد في القرآن والسنة ، ولا يزيد عليهما ، فذلك هو طريق السلامة والهدى .

ثم لقد آن الأوان أن ينبذ المسلمون علم الكلام وراء ظهورهم ، فلم يتعبدهم الله به ، ولم نره يومًا كان سببًا في هداية ضال ، أو تعليم جاهل ، بل هو الجهل والضلال بعينه ، وهو خلاف الطريق التي أرشدنا الله إليها ورسوله ، وطريقة مبتدعة لتعليم العقيدة ، وكذلك لب العقيدة على طريقة المتكلمين مشحون بالضلالات ، ولم يتعبدنا رب العباد بمذهب النسفي أو الإيجي أو الآمدي ، بل بما ورد في الكتاب والسنة .

آن الأوان لترجع العقيدة غضة طرية كسالف عهدها ، حينئذ فقط تَصلُح أحوال المسلمين ، وما أجدرنا أن ندعوا الله حينئذ فيستجيب لنا .

والله أسأل أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ، ويوفقنا جميعاً للاهتداء بكتابه والسير على سنة رسوله ﷺ ، والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تمهيد

أولًا : لمن أوجه هذا الحوار :

مادة هذا الحوار أخاطب به المسلم الذي وقع في التناقض نتيجة التزامه بعلم الكلام ، لذا تجده يصرح بأنه على عقيدة الأشعري في الأصول ، وعلى مذهب مالك والشافعي في الفروع ، فلطالما يتساءل الإنسان : هل اتباع الأئمة الأربعة المعاصرون متبعون لهم في الاعتقاد كما هم متبعون لهم في الفروع ، أم مخالفون لهم ؟ وهل تتفق عقائدهم مع ما جاء به التنزيل ، وما فطر الله عليه العباد أم لا ؟ أم هم اعتنقوا أصول مذاهب مختلفة نتج عنها ميراث الخلاف المذهبي الذي يعيش فيه المسلمون اليوم بما له من آثار سيئة على الأمة والمجتمع الإسلامي ؟

وللأسف إن الكثير من أتباع الأئمة على خلاف عقائد أئمتهم ، والرزية كل الرزية أن من تلبس بشيء من البدع فإنه ينسب ذلك إلى الأئمة ، وهم برآء قال شيخ الإسلام : « فما من إمام إلا وقد انتسب إليه أقوام وهو منهم بريء ، فقد انتسب إلى مالك أناس ، مالك بريء منهم ، وانتسب إلى الشافعي أناس ، هو منهم بريء ، وانتسب إلى أبي حنيفة أناس هو بريء منهم » [١] .

وقال أيضًا : « وكذلك أهل المذاهب الأربعة وغيرها ، ولا سيما وقد تلبس ببعض المقالات الأصولية ، وخلط هذا بهذا ، فالحنبلي والشافعي والمالكي يخلط بمذهب مالك والشافعي وأحمد شيئًا من أصول الأشعرية والسالمية ، وغير ذلك ويضيفه إلى مذهب مالك والشافعي وأحمد » .

---

(١) العقود الدرية ، ص ١٥٧ ، انظر : مجموع الفتاوى (١٥٨/٣) .

وقال **أبو المظفر الإسفراييني** : « قد نبغ من أحداث أهل الرأي من تلبس بشيء من مقالات القدرية والروافض مقلدًا فيها ، وإذا خاف سيوف أهل السنة نسب ما هو فيه من عقائده الخبيثة إلى أبي حنيفة تسترًا به ، فلا يغرنك ما ادعوا من نسبتها إليه ، فإن أبا حنيفة بريء منهم ، ومما نسبوه إليه » [(١)] .

وقال **ابن أبي العز** رحمه الله : « ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك - يعني علو الله على خلقه واستواؤه على عرشه - ممن ينتسب إلى مذهب أبي حنيفة ، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم مخالفون له في كثير من اعتقاده ، وقد ينسب إلى مالك والشافعي وأحمد - رضوان الله عليهم - ومن يخالفهم في بعض اعتقاداتهم ، وقصة أبي يوسف في استتابة بشر المريسي لما أنكر أن يكون الله عز وجل فوق العرش مشهورة » [(٢)] .

مع أن عقائد الأئمة الأربعة واحدة في أصول الدين وهو ما نطق به الكتاب والسنة ، وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وليس بين هؤلاء الأئمة ولله الحمد نزاع في أصول الدين ، بل هم متفقون على الإيمان بصفات الرب ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الإيمان لابد فيه من تصديق القلب واللسان ، بل كانوا ينكرون على أهل الكلام من جهمية وغيرهم ممن تأثر بالفلسفة اليونانية والمذاهب الكلامية .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

« ...... ولكن من رحمة الله بعباده أن الأئمة الذين هم في الأمة لسان صدق كالأئمة الأربعة وغيرهم ... كانوا ينكرون على أهل الكلام من الجهمية قولهم في القرآن والإيمان ، وصفات الرب ، وكانوا متفقين على ما كان عليه السلف من أن الله يرى في الآخرة ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الإيمان لابد فيه من تصديق القلب واللسان ... » [(٣)] .

---

(١) التبصير في الدين ، ص ١١٤ ، تحقيق : الكوثري .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٠٢ ، ط دار البيان .

(٣) كتاب الإيمان ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ ، تعليق : محمد الهراس ، دار الطباعة المحمدية .

وقال : « إن الأئمة المشهورين كلهم يثبتون الصفات لله تعالى ، ويقولون : إن القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، ويقولون : إن الله يُرى في الآخرة ، هذا مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أهل البيت وغيرهم ، وهذا مذهب الأئمة المتبوعين مثل : مالك بن أنس ، والثوري ، والليث بن سعد ، والأوزاعي ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، وأحمد ... » [١] .

وسئل **شيخ الإسلام** عن اعتقاد الشافعي فأجاب بقوله : « اعتقاد الشافعي رضي الله عنه واعتقاد سلف الإسلام ، كمالك والثوري والأوزاعي وابن المبارك وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، هو اعتقاد المشايخ المقتدى بهم كالفضيل بن عياض وأبي سليمان الدارمي ، وسهل بن عبد الله التستري وغيرهم ، فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة وأمثالهم نزاع في أصول الدين ، وكذلك أبو حنيفة رحمه الله ، فإن الاعتقاد الثابت عنه في التوحيد والقدر ونحو ذلك موافق لاعتقاد هؤلاء ، واعتقاد هؤلاء هو ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وهو ما نطق به الكتاب والسنة » [٢] .

وهذا ما اختاره العلامة **صديق حسن خان** حيث يقول : « فمذهبنا مذهب السلف إثبات بلا تشبيه ، وتنزيه بلا تعطيل ، وهو مذهب أئمة الإسلام كمالك والشافعي والثوري وابن المبارك والإمام أحمد ... وغيرهم ، فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة نزاع في أصول الدين ، وكذلك أبو حنيفة - رضي الله عنه - فإن الاعتقاد الثابت عنه موافق لاعتقاد هؤلاء ، وهو الذي نطق به الكتاب والسنة » [٣] .

وأما وجه تخصيص الأئمة الأربعة بالذكر ؛ فإنما هو لعظم شأنهم وعلو مكانهم ورفعة مراتبهم ، وعظيم جهادهم وسابقتهم وقرب عصرهم من عصر الصحابة والتابعين ، ولأنهم هم المقتدى بهم ، والمرجوع إلى مذهبهم في العالم الإسلامي ، ولأن في بيان وحدة معتقدهم وإيضاح مجمل عقائدهم وموافقته للسنة والمأثور عن سلف الأمة : إقامة للحجة على كل من كان يتبع مذاهب هؤلاء وهو على غير

---

(١) منهاج السنة (١٠٦/٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥٦/٥) .

(٣) قطف الثمر ، ص ٤٧ - ٤٨ .

طريقتهم ، وثَم أمر آخر وهو : أن بيان معتقد هؤلاء الأئمة الأعلام من مصادرها المعتبرة هو تزييف وإبطال للآراء المنسوبة للإمام ، وهو منها بريء ، وقد كتب شيخ الحرمين **أبو الحسن محمد بن عبد المالك الكرجي** [١] كتابًا في هذا الشأن سماه « الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزامًا لذوي البدع والفضول » وكان من أئمة الشافعية ، وذكر في كتابه هذا كلام الشافعي ومالك والثوري وأحمد بن حنبل والبخاري ، وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، واسحاق بن راهويه في أصول السنة ما يعرف به اعتقادهم ، وذكر في تراجمهم ما فيه تنبيه على مراتبهم ومكانتهم في الإسلام .

وذكر فيه هذا المعنى فقال : « إنه اقتصر في النقل عنهم – دون غيرهم – لأنهم هم المقتدى بهم ، والمرجوع شرقًا وغربًا إلى مذهبهم ، ولأنهم أجمع لشرائط القدوة والإمامة من غيرهم وأكثر لتحصيل أسبابها وأدواتها من جودة الحفظ والبصيرة والفطنة والمعرفة بالكتاب والسنة والإجماع والسند والرجال ، والأحوال ، ولغات العرب ، ومواضعها والتاريخ ، والناسخ والمنسوخ ، والمنقول والمعقول ، والصحيح والمدخول في الصدق والصلابة ، وظهور الأمانة والديانة ممن سواهم » .

قال : « وإن قصر واحد منهم في سبب منها جبر تقصيره قرب عصر من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، باينوا هؤلاء بهذا المعنى من سواهم ، فإن غيرهم من الأئمة – وإن كانوا في منصب الإمامة – كانوا أخلوا ببعض ما أشرت إليه مجملًا من شرائطها ، إذ ليس هذا موضعًا لبيانها » .

قال : « ووجه ثالث لابد أن نبين فيه ، فنقول إن في النقد عن هؤلاء إلزامًا للحجة على كل من ينتحل مذهب إمام يخالفه في العقيدة فإن أحدهما لا محالة يضلل صاحبه أو يبدعه أو يكفره ، فانتحال مذهبه – مع مخالفته في العقيدة –

---

(١) قال ابن كثير : « كان فقيهًا مفتيًا سمع الكثير من بلاد شتى ، وله مصنفات كثيرة ، توفي وقد قارب التسعين عام ٥٣٢ هـ ، انظر ترجمته في البداية (٢١٣/١٢) ، المنتظم (٧٥/١٠ – ٧٦) ، طبقات الشافعية للسبكي ، ص ٨١ – ٨٦ ، وانظر : أصول الدين عند الأئمة الأربعة واحدة ، للدكتور ناصر القفاري وفقه الله تعالى ، ص ٣٤ .

مستنكر والله شرعًا وطبعًا ، فمن قال : أنا شافعي الشرع أشعري الاعتقاد ، قلنا له : هذا من الأضداد ، لا بل من الارتداد ، إذ لم يكن الشافعي أشعري الاعتقاد . ومن قال : أنا حنبلي في الفروع معتزلي في الأصول ، قلنا له : قد ضللت إذا عن سواء السبيل فيما تزعمه ، إذ لم يكن أحمد معتزلي الدين والاجتهاد » .

قال : « وقد افتتن أيضًا خلق من المالكية بمذاهب الأشعرية ، وهذه والله سبة وعار ، وفلتة تقود بالوبال والنكال وسوء الدار ، على منتحل هؤلاء الأئمة الكبار ، فإن مذهبهم ما رويناه من تكفيرهم الجهمية والمعتزلة والقدرية والواقفية وتكفيرهم اللفظية » [١] .

---

(١) انظر : الفتاوى (١٧٥/٤) .

ثانيًا : مادة هذا الحوار :

أخاطب به المسلم الذي درس علم الكلام على طريقة الأشعرية فوافق أهل السنة في بعض أصولهم ، وعارضهم في بقية الأصول ، لذا قال العلامة ابن سحمان رحمه الله في أمثالهم : « فكيف يكون من أهل السنة والجماعة من لا يثبت علو الرب سبحانه فوق سماواته واستوائه على عرشه ، ويقول : حروف القرآن مخلوقة ، وإن الله لا يتكلم بحرف وصوت ، ولا يثبت رؤية المؤمنين ربهم في الجنة بأبصارهم ، فهم يقرون بالرؤية ويفسرونها بزيادة علم يخلقه الله في قلب الرائي ، ويقول : الإيمان مجرد التصديق وغير ذلك من أقوالهم المعروفة المخالفة لما عليه أهل السنة والجماعة » (١) .

فمن الأصول التي وافقوا أهل السنة والجماعة فيها :

١ - محبة الصحابة وآل بيت النبي ﷺ .

٢ - الإمامة .

٣ - أحوال البرزخ والآخرة ، وغير ذلك .

وأما الأصول التي عارضوا فيها أصول أهل السنة ، ووافقوا فيها الجهمية أبرزها ما يأتي :

١ - حقيقة الإيمان ومسماه .

٢ - حقيقة التوحيد ، حيث اقتصروا على التوحيد الاعتقادي دون العملي .

٣ - تعطيل الصفات ما عدا سبع .

٤ - الغلو في إثبات القدر ، ونفي قدرة العبد ، لذا عدهم بعض العلماء المحققين من أهل السنة والجماعة فيما وافقوا فيه أهل السنة والجماعة ، وليسوا من أهل السنة فيما عارضوا فيه من أهل السنة .

قال الشيخ **عبد العزيز بن باز** رحمه الله : « الصحيح في الجملة ، فالمتأمل لبعض الصفات كالأشاعرة لا يخرج بذلك عن جماعة المسلمين ، ولا عن جماعة

---

(١) لوامع الأنوار البهية (٧٣/١) حاشية رقم ٤ .

أهل السنة في غير باب الصفات [١] ، ولكنه لا يدخل في جماعة أهل السنة عند ذكر إثباتهم للصفات ، وإنكارهم للتأويل .

فالأشاعرة وأشباههم لا يدخلون في أهل السنة في إثبات الصفات ، لكنهم قد خالفوهم في ذلك وسلكوا غير منهجهم ، وذلك يقتضي الإنكار عليهم ، وبيان خطئهم في التأويل ، وأن ذلك خلاف منهج الجماعة ... كما أنه لا مانع أن يقال إن الأشاعرة ليسوا من أهل السنة في باب الأسماء والصفات ، وإن خالفوهم في الأبواب الأخرى [٢] حتى يعلم الناظر في مذهبهم أنهم قد أخطأوا في تأويل بعض الصفات ، وخالفوا أصحاب النبي ﷺ وأتباعهم بإحسان في هذه المسألة ، تحقيقًا للحق وإنكارًا للباطل ، وإنزالًا لكل من أهل السنة والأشاعرة من منزلته التي هو عليها ... » [٣] .

وممن ذهب إلى ذلك الدكتور / **صالح الفوزان** ، حيث قال في تعقيبه على مقالات الصابوني : « نعم هم – يعني الأشاعرة – من أهل السنة والجماعة في بقية أبواب الإيمان والعقيدة التي لم يخالفوهم فيها ، وليسوا منهم في باب الصفات، وما خالفوا فيه لاختلاف مذهب الفريقين في ذلك » [٤] .

ثالثًا :

مادة هذا الحوار أخاطب به المسلم الذي درس علم الكلام على طريقة الأشاعرة، وهم قلة يوجدون في بعض المدارس والجامعات في بعض البلدان الإسلامية ، وأما عوام المسلمين ، فالأصل فيهم أنهم على عقيدة القرآن والسنة الموافقة للفطرة السليمة التي يولد عليها الإنسان ، وينشأ عليها المسلم بلا تلقين

---

(١) من الأبواب التي لم يخالفوهم فيها .

(٢) أي : التي لم يخالفوهم فيها ، فإن مخالفة الأشاعرة لأهل السنة ليست مقصورة على باب الأسماء والصفات فقد خالفوهم في أبواب أخرى ، كالإيمان والقدر ، فهم ليسوا من أهل السنة فيها ، كما أنهم ليسوا منهم في باب الأسماء والصفات .

(٣) تنبيهات هامة على ما كتبه محمد علي الصابوني في صفات الله عز وجل ، ص ٣٧ – ٣٨ ، (ط الأولى ١٤٠٤ هـ ، الدار السلفية : الكويت) .

(٤) البيان لأخطاء بعض الكتاب ، ص ٢٨ .

ولا تعليم (من حيث الأصل) فكل من لم يلقنه المبتدعة بدعتهم ، ويدرسوه كتبهم فليس من حق أي فرقة أن تدعيه إلا أهل السنة والجماعة .

ومن الأدلة على ذلك : الإنسان الذي يدخل في الإسلام حديثًا ، فهل تستطيع أي فرقة أن تقول أنه معتزلي أو أشعري ؟ أما نحن فبمجرد إسلامه يصبح واحدًا منا ، وإن شئت المثال على عقيدة العوام ، فاسأل الملايين من المسلمين شرقًا وغربًا هل فيهم من يعتقد أن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته كما تقول الأشاعرة ، أم أنهم كلهم مفطورون على أنه تعالى فوق المخلوقات ، وهذه فطرة تظل ثابتة في قلوبهم حتى وإن وجدوا من يلقنهم في أذهانهم تلك المقولة الموروثة عن فلاسفة اليونان (١) .

---

(١) انظر : منهج الأشاعرة في العقيدة للشيخ سفر الحوالي ، ص ١٣ - ١٤ .

الفصل الأول

التعريف بالأشعرية إجمالًا

وبيان موقف السلف من علم الكلام

المبحث الأول : التعريف بالمذهب الأشعري إجمالاً .

المبحث الثاني : علم الكلام الأشعري بين القبول والرفض .

المبحث الثالث : تحريف الأشاعرة لكلام الأئمة في التحذير من علم الكلام .

المبحث الرابع : موقف أئمة السنة من سلف الأشاعرة .

المبحث الخامس : موقف أئمة السنة الذين عاشوا قبل ابن تيمية .

المبحث السادس : موقف علماء السنة الذين عاشوا بعد ابن تيمية من الأشاعرة .

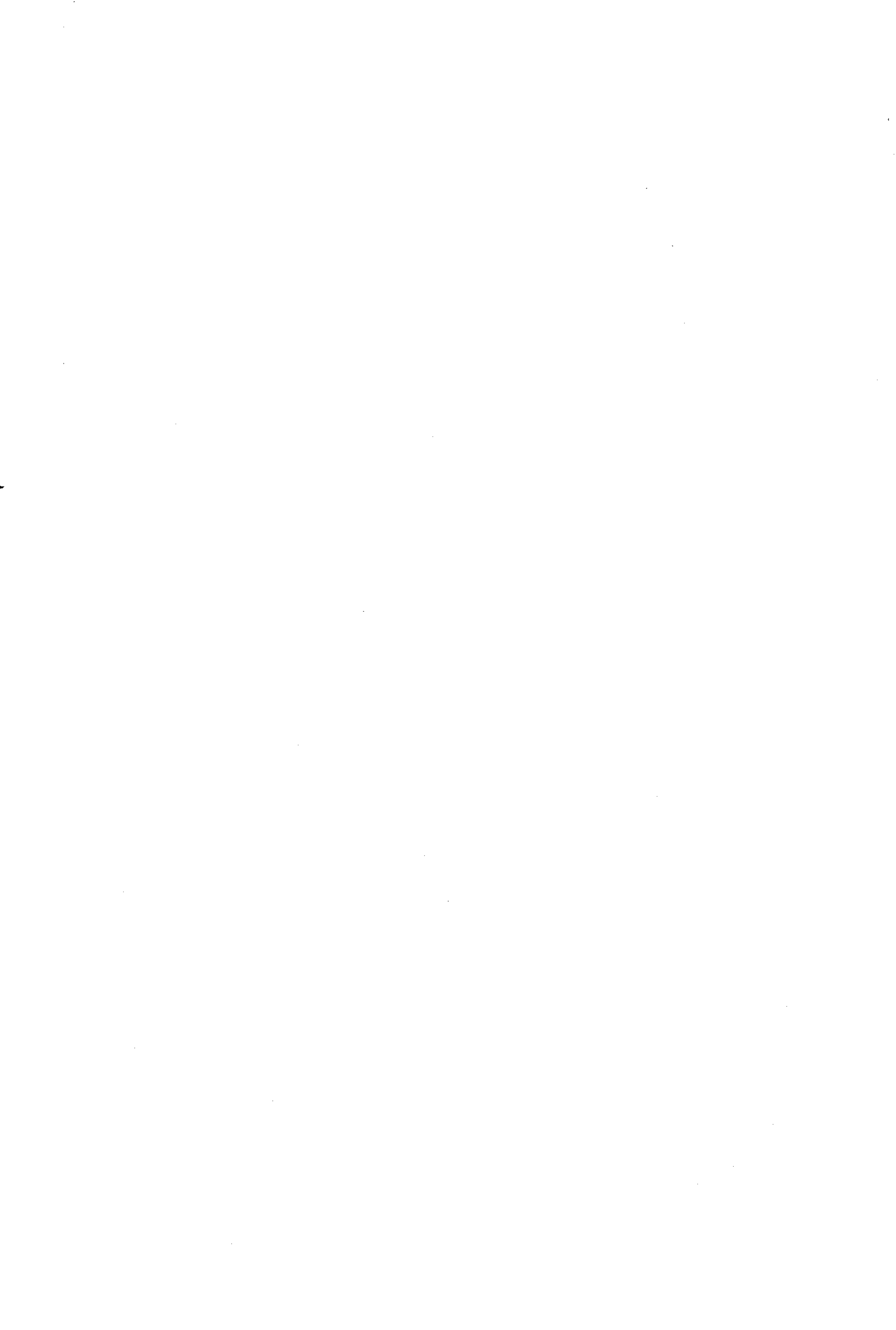
المبحث السابع : توبة أبي الحسن الأشعري من علم الكلام .

المبحث الثامن : انقطاع الصلة بين الأشعرية والأئمة الأربعة في كثير من الأصول .

المبحث التاسع : متابعة الأشعرية لمذهب المعتزلة في بعض الأصول .

المبحث العاشر : حيرة بعض علماء الأشاعرة واضطرابهم .

المبحث الحادي عشر : نصيحة تائب من علم الكلام الأشعري .



المبحث الأول

التعريف بالمذهب الأشعري إجمالًا

ينسب المذهب الأشعري الموجود في العالم الإسلامي إلى علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري البصري .

قال عنه المقريزي : « أخذ عن الجبائي مذهب الاعتزال ، ثم بدا له فتركه ، وسلك طريقة عبد الله بن كلاب ، ونسج على قوانينه في الصفات والقدر ، فمال إليه جماعة وعولوا على رأيه وجادلوا فيه ، وانتشر مذهب أبي الحسن الأشعري في العراق ، ثم انتقل منه إلى الشام ، فلما ملك بنو أيوب عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري ، وحملوا الناس على التزامه ، فانتشر في أمصار الإسلام ، مات الأشعري سنة ٣٢٤ هـ .

ومن أهم آراء الأشاعرة نفي الصفات إلا سبعًا ، يثبتونها بالعقل والقول بأن أفعال العباد مخلوقة لله ، وهي كسب لهم ، وأشهر علماء الأشاعرة ، الباقلاني ، والجويني ، والإيجي ، والرازي » [١] .

---

(١) انظر : خطط المقريزي (٢/٣٨٥ - ٣٥٩) ، شذرات الذهب (٢/٣٠٣) .

المبحث الثاني

علم الكلام الأشعري بين القبول والرفض

يقوم علم الكلام على دعامتين أساسيتين هما : اتخاذ العقل أساسًا - ومن هنا يوجبون تقديمه على النقل - والجدل .

ومن الطبيعي أن يرفض أئمة السلف علم الكلام لإدراكهم خطورته على الدين ، ومن هنا كان أئمة السنة ينهون عن الجدل وطلب الدين بالكلام ، ولا بأس أن أذكر شيئًا من نصوص الأئمة الأربعة في النهي عن علم الكلام .

١ - **قال أبو حنيفة** لأحد أصحابه لما سأله عن العرض ، قال : « مقالات الفلاسفة ! عليك بالأثر وطريقة السلف ، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة »[١] .

٢ - لذا قال **محمد بن الحسن** : « كان أبو حنيفة يحثنا على الفقه ، وينهانا عن الكلام »[٢] .

٣ - ويقول في هذا **ابن خزيمة** : « ... أبو حنيفة ومحمد بن الحسن وأبو يوسف ... ينهون عن الخوض فيه - يعني الكلام - ويدلون أصحابهم على الكتاب والسنة »[٣] .

٤ - وقال الإمام **مالك بن أنس** : « الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه نحو الكلام في رأي جهم والقدر ، وكل ما أشبه ذلك ، ولا يجب الكلام إلا فيما تحته عمل ، فأما الكلام في دين الله وفي الله

---

(١) ذم الكلام ، ق ١٩٤ /ب .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ، ق ٢٣٣/ب .

عز وجل ، فالسكوت أحب إلي لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل »[(١)] .

٥ - وأخرج أبو نعيم عن عبد الله بن نافع قال : سمعت مالكًا يقول : « لو أن رجلًا ركب الكبائر كلها بعد ألا يشرك بالله ، ثم تخلى من هذه الأهواء والبدع - وذكر كلامًا - دخل الجنة »[(٢)] .

٦ - وأخرج الهروي عن إسحاق بن عيسى[(٣)] قال : قال مالك : « من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب »[(٤)] .

٧ - وأخرج الخطيب عن إسحاق بن عيسى قال : « سمعت مالك بن أنس يعيب الجدال في الدين ، ويقول : كلما جاءنا رجل أجدل من رجل أرادنا أن نرد ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ »[(٥)] .

٨ - وأخرج الهروي عن عبد الرحمن بن مهدي قال : « دخلت على مالك وعنده رجل يسأله فقال : لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد ، لعن الله عمرو بن عبيد ، فإنه ابتدع هذه البدعة من الكلام ، ولو كان الكلام علمًا لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع »[(٦)] .

٩ - وأخرج الهروي عن أشهب بن عبد العزيز قال : « سمعت مالكًا يقول : إياكم والبدع ، قيل : يا أبا عبد الله وما البدع ؟ قال : أهل البدع الذين يتكلمون في

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٤١٥ ، ط دار الكتب الإسلامية .

(٢) الحلية (٣٢٥/٦) .

(٣) هو إسحاق بن عيسى بن نجيح البغدادي قال عنه ابن حجر : « صدوق مات سنة ٢١٤ » تقريب التهذيب (٦٠/١) انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (٢٤٥/١) .

(٤) ذم الكلام ، ق ١٧٣/أ .

(٥) شرف أصحاب الحديث ، ص ٥ .

(٦) ذم الكلام ، ق ١٣٧/ب .

أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان » [١] .

١٠ - وأخرج أبو نعيم عن الشافعي قال : « كان مالك بن أنس إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال : أما إني على بينة من ربي وديني ، وأما أنت فشاك فاذهب إلى شاك فخاصمه » [٢] .

١١ - وروى ابن عبد البر عن محمد بن أحمد بن خويز منداد المصري المالكي قال في كتاب الإجارات من كتابه الخلاف : قال مالك : « لا تجوز الإجارات في شيء من كتب الأهواء والبدع والتنجيم ، وذكر كتبًا ثم قال : وكتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة ، وغيرهم وتفسخ إجارة في ذلك » [٣] .

١٢ - وأخرج الهروي عن الربيع بن سليمان قال : « سمعت الشافعي يقول ... لو أن رجلًا أوصى بكتبه من العلم لآخر ، وكان فيها كتب الكلام لم تدخل في الوصية ؛ لأنه ليس من العلم » [٤] .

١٣ - وأخرج الهروي عن الحسن الزعفراني قال : سمعت الشافعي يقول : « ما ناظرت أحدًا في الكلام إلا مرة ، وأنا أستغفر الله من ذلك » [٥] .

١٤ - وأخرج الهروي عن الربيع بن سليمان قال : قال الشافعي : « لو أردت أن أضع على كل مخالف كتابًا كبيرًا لفعلت ، ولكن الكلام ليس من شأني ، ولا أحب أن ينسب إلي شيء منه » [٦] .

---

(١) المصدر السابق ، ق ٧٣/أ .

(٢) الحلية (٣٤٢/٦) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ، ص ٤١٦ - ٤١٧ .

(٤) ذم الكلام ، ق (٢١٣) .

(٥) ذم الكلام (ق - ٢١٣) وأورده الذهبي في السير (٣٠/١٠) .

(٦) المصدر السابق .

١٥ - وأخرج ابن بطة عن أبي ثور قال : قال لي الشافعي : « ما رأيت أحدًا ارتدى شيئًا من الكلام فأفلح »[(١)] .

١٦ - وأخرج الهروي عن يونس المصري قال : قال لي الشافعي : « لأن يبتلي الله المرء بما نهى الله عنه خلا الشرك بالله خير من أن يبتليه بالكلام »[(٢)] .

١٧ - وأخرج البيهقي في مناقب الشافعي قول الشافعي : « حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويحملوا على الإبل ، ويطاف بهم في العشائر ينادى عليهم : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام »[(٣)] .

١٨ - وأخرج ابن بطة عن أبي بكر المروزي قال : « سمعت أبا عبد الله يقول : من تعاطى الكلام لم يفلح ، ومن تعاطى الكلام لم يخل أن يتجهم »[(٤)] .

١٩ - وأورد ابن عبد البر في جامع بيان العلم عن أحمد قال : « إنه لا يفلح صاحب كلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحدًا نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل »[(٥)] .

٢٠ - وأخرج الهروي عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : « كتب أبي إلى عبيد الله بن يحيي بن خاقان[(٦)] : لست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام في شيء من هذا ، إلا ما كان في كتاب الله أو في حديث رسول الله ﷺ ، فأما غير ذلك ، فإن الكلام فيه غير محمود »[(٧)] .

---

(١) الإبانة الكبرى ص ٣٥٣ ، ٥٣٦ .

(٢) مناقب الشافعي ، لابن أبي حاتم ص ١٨٢ .

(٣) مناقب الشافعي ، للبيهقي (٤٦٢/١) .

(٤) الإبانة (٥٣٨/٢) .

(٥) جامع بيان العلم وفضله (٩٥/٢) .

(٦) هو أبو الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان التركي ثم البغدادي ، قال عنه الذهبي : « الوزير الكبير وزير المتوكل والمعتمد .. وحظي عند المتوكل ، وكان سمحًا جوادًا » . وقال ابن أبي يعلى : « نقل عن إمامنا أشياء منها أنه قال : سمعت أحمد يقول : « أنزه نفسي عن مال السلطان وليس بحرام » . مات سنة ٢٦٣ هـ ، سير أعلام النبلاء (٩/١٣) ، طبقات الحنابلة (٢٠٤/١) .

(٧) ذم الكلام (ق - ٢١٦ - ب) .

٢١ - وأخرج ابن الجوظي عن موسى بن عبد الله الطرسوسي قال : « سمعت أحمد ابن حنبل يقول : « لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة » [١] .

٢٢ - وأخرج ابن بطة عن أبي الحارث الصايغ قال : « من أحب الكلام لم يخرج من قلبه ، ولا ترى صاحب كلام يفلح » [٢] .

٢٣ - وأخرج ابن بطة عن عبيد الله بن حنبل قال : حدثني أبي قال : « سمعت أبا عبد الله يقول : عليكم بالسنة والحديث ، وينفعكم الله به ، وإياكم والخوض والجدال والمراء ، فإنه لا يفلح من أحب علم الكلام ، وكل من أحدث كلامًا لم يكن آخر أمره إلا إلى بدعة ؛ لأن الكلام لا يدعو إلى خير ، ولا أحب الكلام ولا الخوض ولا الجدال ، وعليكم بالسنن والآثار والفقه الذي تنتفعون به ، ودعوا الجدال وكلام أهل الزيغ والمراء ، أدركنا الناس ولا يعرفون هذا ، ويجانبون أهل الكلام ، وعاقبة الكلام لا تؤول إلى خير ، أعاذنا الله وإياكم من الفتن ، وسلمنا وإياكم من كل هلكة » [٣] .

٢٤ - وأخرج ابن بطة في الإبانة عن أحمد قال : « إذا رأيت الرجل يحب الكلام فاحذره » [٤] .

وكذا ذمه السلف أئمة السنة ذمًا شديدًا ، وأجمعوا على تحريمه ، قال الغزالي : « وإلى تحريم الكلام ذهب الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وجميع أئمة السلف ... واتفق أهل الحديث من السلف على هذا ولا ينحصر ما نقل عنه التشديدات فيه ، وقالوا : ما سكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق ... إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر » [٥] .

---

(١) مناقب الإمام أحمد ، ص ٢٠٥ .

(٢) الإبانة لابن بطة (٢/٥٣٩) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق (٢/٢٤٠) .

(٥) إحياء علوم الدين (١/١٦٣ - ١٦٤) .

هذا الإجماع السلفي على ذم الكلام وأهله هو المعتبر من لدن ظهور الكلام إلى يومنا هذا ، وكل ما نقل عن بعض المنتسبين إلى أئمة السنة مما يخالف ذلك ، فلا يعدوا كونه خروجًا عن هذا الخط السني وانحرافًا عن منهج أئمة السلف المقصود وإن نصوص الأئمة في التحذير من علم الكلام كثيرة ، ومن أراد الوقوف على كلامهم فليرجع إلى كتاب ذم الكلام للهروي ، وذم الكلام للسلمي ، والإبانة لابن بطة ، ورغم تحذير الأئمة من علم الكلام ، إلا أن هناك جمعاً غفيراً من الأشعرية والماتريدية أفنوا أعمارهم ، وأنهكوا قواهم في علم الكلام درسًا وتدريسًا أمثال الآمدي ، والباقلاني ، والجويني ، والرازي ، وأبي اليسر البزدوي ، والنسفي ، والتفتازاني ، والإيجي ، والجرجاني ، وغيرهم كل هؤلاء يعظمون علم الكلام ويرونه أساسًا للدين ، فأثنوا على علم الكلام في مقدمات كتبهم ، وإليك نصًا واحدًا على سبيل المثال ، قال الآمدي الأشعري : « وأشرف العلوم إنما هو العلم الملقب بعلم الكلام » [١] .

قال **التفتازاني الماتريدي** شارح العقيدة النسفية : « فإن مبنى علم الشرائع والأحكام وأساس قواعد الإسلام هو علم التوحيد والصفات الموسوم (بالكلام) بالمنجي من غياهب الشكوك وظلمات الأوهام » [٢] .

ومن هنا علمنا يقينًا أن الأشعرية والماتريدية لم يلتقوا مع الأئمة الأربعة في رفضهم علم الكلام ، بل نجد أنه توغلوا في علم الكلام ، ولم يسلكوا طريقًا غيره .

يقول ابن تيمية : « كان الشافعي من أعظم الناس ذمًا لأهل الكلام ولأهل التغيير ونهيًا عن ذلك ، وجعلًا له من البدعة الخارجة من السنة ، ثم كثيراً من أصحابه عكسوا الأمر حتى جعلوا الكلام الذي ذمه الشافعي هو السنة وأصول الدين الذي يجب اعتقاده وموالاة أهله ، وجعلوا موجب الكتاب والسنة الذي مدحه الشافعي هو البدعة التي يعاقب أهلها » [٣] .

---

(١) غاية المرام في علم الكلام ، ص ١٤ .

(٢) شرح العقائد النسفية ، ص ٢ - ٣ .

(٣) الاستقامة (١/١٥) .

من هنا فارقوا أئمة السنة ، فالأئمة الأربعة يعظمون نصوص الكتاب والسنة ، ويثبتون ما تدل عليه ، ولا يتعدون عنهما ، أو يتجاوزوهما برأي أو تأويل ، ولم يعطلوا النصوص أو يهملوها ، بل كان إعمالهم للنصوص حتى ولو استوحشتها أسماع أهل الكلام بينما يظهر لنا بعد الأشعرية والماتريدية عن منهج أئمة السنة حيث جعلوا العقل أصلًا ، وقدموه على الشرع وصرفوا النصوص الشرعية بتأويلاتهم العقلية المحتملة ، واتخذوا علم الكلام مطية ذلك .

المبحث الثالث

تحريف الأشاعرة لكلام الأئمة في التحذير من علم الكلام

يتشبث بعض من يشتغل بعلم الكلام من الأشعرية والماتريدية في الفرار من أقوال الأئمة الأربعة المتقدم ذكرها في ذم الكلام بأن مراد الأئمة الأربعة ، وكل من ذم علم الكلام من السلف هو علم الكلام المذموم الذي كان عليه الجهمية والمعتزلة ، أما علم الكلام الذي ينتحلونه فلا يدخل تحت ذلك الذم ؛ لأنه كلام محمود [١] .

والجواب عن هذا الإشكال أن علم الكلام كله مذموم ليس فيه حسن وسيء ، ومثل صاحب هذه الشبهة مثل من قسم البدعة إلى حسنة وسيئة .

والبرهان على ذلك أن علم الكلام الذي ذمه السلف وذمه المشتغلين به ذمًا شديدًا هو علم الكلام الذي من نتيجته وثمرته نفي صفات الله ، كالعلو ، والاستواء ، والنزول ، والقول بخلق القرآن ، والقول بالكلام النفسي ، والقول بتقديم العقل على النقل ، وهذا كله موجود عند كثير من الماتريدية والأشاعرة .

قال الإمام أحمد : « لا أحب الكلام في هذا إلا ما كان في كتاب الله أو حديث عن رسول الله ﷺ أو الصحابة أو التابعين ، فأما غير ذلك ، فإن الكلام فيه غير محمود » [٢] .

وقال محمد بن أحمد بن خويز منداد المصري المالكي : « أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام ، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعريًا كان أو غير أشعري ، ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبدًا ، ويهجر ويؤدب على بدعته » [٣] .

---

(١) انظر : شرح العقائد النسفية للتفتازاني ص ٧ ، وشرح الإحياء للزبيدي (٢/٥٢ - ٥٣) .
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/١٥٥) .
(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/١١٧) ط السلفية .

وقال ابن القيم : « قال شيخنا : والكلام الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه وذم أصحابه والنهي عنه ، وتجهيل أربابه ، وتبديعهم وتضليلهم هو هذه الطرق الباطلة التي بنوا عليها نفي الصفات ، والعلو والاستواء على العرش ، وجعلوا بها القرآن مخلوقًا ونفوا بها رؤية الله في الدار الآخرة ، وتكلمه بالقرآن ، وتكليمه لعباده ، ونزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا ، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده ؛ فإنهم سلكوا فيه طرقًا غير مستقيمة ، واستدلوا بقضايا متضمنة بالكذب فلزمهم بها مسائل خالفوا نصوص الكتاب والسنة ، وصريح المعقول » (١) .

فلا شك أن ما هم عليه داخل في علم الكلام المذموم الذي ذمه السلف ، لذا يقول شيخ الإسلام في معاصريه من المتكلمين : « وهم في الحقيقة لا للإسلام نصروا ، ولا للفلاسفة كسروا » (٢) .

ويقول فيهم : « يسفسطون في المعقولات ، ويقرمطون في السمعيات » (٣) .

---

(١) الصواعق المرسلة (١٢٦٦/٤ - ١٢٦٧) .

(٢) شرح حديث النزول ، ص ١٦٣ ، ومجموع الفتاوى (٣٣/٥ ، ٤٤) ، وجامع الرسائل (٢/ ٣٣) .

(٣) شرح حديث النزول ص ١٩٦ ، ومجموع الفتاوى (٩/٣) ، ودرء تعارض العقل والنقل (١/ ٢١٨) ، والتدمرية ص ١٩ .

المبحث الرابع

موقف أئمة السنة من سلف الأشاعرة

سلف الأشاعرة في مقالاتهم هو عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وأبو العباس القلانسي ، والحارث المحاسبي .

يقول الشهرستاني (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ) بعد أن بين أن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون صفات الله عز وجل من غير تفرقة بين الصفات الذاتية منها والصفات الفعلية .. « حتى انتهى الزمان إلى عبد الله بن سعيد الكلابي ، وأبي العباس القلانسي ، والحارث بن أسد المحاسبي ، وهؤلاء كانوا من جملة السلف إلا أنهم باشروا علم الكلام ، وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية ، وبراهين أصولية ، وصنف بعضهم ، ودرس بعض ، حتى جرى بين أبي الحسن الأشعري وبين أستاذه [١] مناظرة في مسائل من مسائل الصلاح والأصلح ، فتخاصما ، وانحاز الأشعري إلى هذه الطائفة ، فأيد مقالتهم بمناهج كلامية ، وصار ذلك مذهبًا لأهل السنة والجماعة ، وانتقلت سمة الصفاتية إلى الأشعرية » [٢] .

وكلام الشهرستاني يفيد صراحة ؛ أن مذهب الأشعرية إنما تلتمس أصوله لدى جماعة من الصفاتية باشروا الكلام ، وأثبتوا الصفات من أمثال الكلابي ، والقلانسي ، والمحاسبي [٣] .

ويعتبر الأشاعرة **ابن كلاب** ، إمام أهل السنة في عصره ، ويعدونه شيخهم الأول ، فيقولون : « ذهب شيخنا الكلابي عبد الله بن سعيد ... » [٤] .

---

(١) وهو شيخه : أبو علي الجبائي .

(٢) الملل والنحل (٩٣/١) .

(٣) د. أحمد محمود صبحي ، في علم الكلام ص ٤٢٢ .

(٤) الشهرستاني ، نهاية الإقدام ، ص ٣٠٣ .

وأما الأشعرية فقد زعموا أن الله يتكلم بكلام نفسي غير مخلوق [١] ، أما الكلام اللفظي ومنه القرآن ، فهو مخلوق ، وصرحوا بأنهم ليس بينهم وبين المعتزلة خلاف ، وبهذا يكونوا قد ارتكبوا بدعتين :

١ - القول بخلق القرآن .

٢ - بدعة القول بالكلام النفسي .

٦ - سلك الأشاعرة لإثبات وجود الله مسلكًا عقليًا تابعوا فيه المعتزلة [٢] .

وخلاصته : أنه لا يعرف إثبات الصانع حتى يعرف حدوث العالم ، ولا يعلم بحدوث العالم إلا بما به يعلم حدوث الأجسام ، والدليل على حدوث الأجسام أنها لا تخلو من الحوادث ، أو أنها مستلزمة للأعراض ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وكل حادث لا بد له من محدث ، والمحدثات لابد أن تنتهي إلى محدث واجب الوجود [٣] .

أما مسلك الأئمة الأربعة في إثبات وجود الرب سبحانه ، فهو مسلك السلف الصالح المستنبط من الكتاب والسنة ، فبالتالي كل طريقة ليس مصدرها الكتاب والسنة ، فهي طريقة مبتدعة عندهم لذلك شنع الإمام أبو حنيفة على عمرو بن عبيد رأس المعتزلة ؛ لأنه فتح الكلام في هذا حيث قال : « لعن الله عمرو بن عبيد ، فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعنيهم من الكلام » [٤] .

وكان ينصح من سأله بعدم سلوك هذه الطريقة ؛ لأنها في نظره مقالات الفلاسفة ، ويوصي بلزوم طريقة السلف المأخوذة من الكتاب والسنة والأثر ، فقد سئل الإمام أبو حنيفة : « ما تقول بما أحدثه الناس في الكلام في الأعراض والأجسام

---

(١) التأنيب ، ص ٩٦ - ٩٧ .

(٢) انظر : شرح الأصول الخمسة ، ص ٩٢ ، وانظر : محصل أفكار المتقدمين ، ص ١٠٦ . والمواقف ٢٦٦ .

(٣) محصل أفكار المتقدمين ، ص ١٠٦ ، والإرشاد ص ٣ ، والمواقف ص ٣٢ .

(٤) ذم الكلام للهروي (ق/١٩٦/ب) .

فقال : مقالات الفلاسفة ، عليك بالأثر وطريقة السلف ، وإياك وكل محدثة ، فإنها بدعة »[١] .

وهذا هو ما كان عليه السلف ، فإنهم أنكروا الكلام في الجوهر والأعراض ، وفي ذلك يقول التيمي : « أنكر السلف الكلام في الجوهر والأعراض ، وقالوا : لم يكن على عهد الصحابة والتابعين ، ولا يخلو أن يكونوا سكتوا عن ذلك ، وهم عالمون به ، فيسعنا السكوت عما سكتوا عنه ، أو يكونوا سكتوا عن ذلك وهم غير عالمين به ، فيسعنا أن لا نعلم ما لم يعلموه ، والحديث الذي ذكرناه[٢] يقتضي أن ما تكلم فيه الآخرون من ذلك ، ولم يتكلم فيه الأولون يكون مردودًا ... »[٣] .

وقال **ابن عقيل** : « أنا أقطع أن الصحابة رضوان الله عليهم ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض ، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن ، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت »[٤] .

٧ - أول واجب على المكلف عند أئمة السنة شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله .

قال الإمام مالك : « محال أن يظن بالنبي عليه السلام علم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد ، والتوحيد ما قاله عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله »[٥] فما عصم به المال والدم حقيقة التوحيد »[٦] .

أما الأشاعرة فيرى كثير منهم أن أول واجب على المكلف هو النظر أو القصد إلى النظر[٧] ؛ لأنه الوسيلة لحصول المعرفة بالله ، وهم مقلدون في هذا المعتزلة .

---

(١) ذم الكلام للهروي (١٩٤/ب) .

(٢) يشير إلى حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » . أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) الحجة في بيان المحجة ، ص ١٧ - ١٨ .

(٤) تلبيس إبليس ، ص ٨٥ ، ط دار الكتب العلمية .

(٥) أخرجه البخاري ومسلم .

(٦) ذم الكلام (ق - ٢١٠) .

(٧) انظر : الإرشاد للجويني ، ص ٣ ، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ، ص ٦١ - ٦٢ ، المواقف للإيجي ص٦٢ ، وغاية المرام ص٥٣ .

ومن هنا يتبين مفارقة الأشعرية لأئمة أهل السنة والجماعة ، لذا تجدهم يلقبون أنفسهم الشافعي والمالكي في الفروع الأشعري في الاعتقاد ، ومن جنسه قول أحمد المقري المغربي في نظم له :

يقول أحمد الفقير المقري   المغربي المالكي الأشعري (١)

وأختم كلامي بأن أوجه نصحية لأهل الكلام من الأشاعرة وغيرهم بأن يتقوا الله ويرجعوا عن عقائد أهل الكلام ، وأن يتبعوا أئمة السلف يسلموا ويغنموا ولا تغرنكم جلالة متبع ، فتتبعوه في الخطأ ، فإنكم بذلك تزرون بالسلف الذين هم أولى بالاتباع منه ، وتزرون بأعيان الأئمة ، كالأربعة السادة الفقهاء وغيرهم ، وإن ارتضيتم مذاهبهم في الفروع ، فحري بكم ارتضاؤها في الأصول ، وإن كنتم رأيتم من صنيعي هدم ما تربيتم عليه سنين ، فلأن تعودوا للصواب خير من تماديكم في الباطل وإقامتكم عليه ، وتدارك أنفسكم بتقويم اعتقاداتكم ، وسلوك جادة السلف خير لكم من أن تلقوا ربكم تعالى بانحراف العقيدة (٢) .

---

(١) إضاءة الدجنة ، ص ٣ .

(٢) انظر العقيدة السلفية في كلام رب البرية ، ص ٨ .

المبحث التاسع

متابعة الأشعرية لمذهب المعتزلة في بعض الأصول

تقدم أن ذكر بعض الأصول التي تابعت فيها الأشعرية المعتزلة كقولهم : بأن أول واجب على المكلف هو النظر العقلي أو القصد إلى النظر ، وإثبات وجود الله عن طريق حدوث الأعراض .

وقد صرح بعض الأشاعرة بوجود رواسب معتزلية عندهم كما في مسألة أول واجب على المكلف .

قال **السمناني** : « إن هذه المسألة بقيت في مقالة الأشعري من مسائل المعتزلة ... » [١] ومن هذه المسائل : التزامهم القول بخلق القرآن بمعناه اللفظي زعموا ، وفي مسألة قدم الأسماء الحسنى والعلو ... » [٢]

قال الإمام **الحافظ السجزي** : « والكلابية والأشعرية قد أظهروا الرد على المعتزلة والذب عن أهل السنة وأهلها ، وقالوا في القرآن وسائر الصفات ما ذكرنا بعضه وقولهم في القرآن حيرة يدعون قرآنا ليس بعربي ، وأنه الصفة الأزلية ، وأما هذا النظم العربي فمخلوق عندهم .

ويقولون الإيمان : التصديق ، وعلى أصلهم أن من صدق بقلبه ولم ينطق بلسانه فهو مؤمن لأمرين :

١ - أن أصل الإيمان عندهم المعرفة ، كما قال جهم .

٢ - أن الكلام معنى في النفس فهو إذا صدق بقلبه فقد تكلم على أصلهم به .

---

(١) فتح الباري (٣٦١/١٣) .

(٢) انظر : اعتراف الباجوري ، ص ٤٩٠ من كتابه .

وعند أهل الأثر أن الإيمان : قول وعمل يزيد وينقص ، وعلماء الآفاق المتبعون كلهم على هذا القول ، ومخالفونا هؤلاء يقولون معناه في الظاهر مثل ذلك ، وعندهم أن التصديق لا مدخل للزيادة والنقصان فيه ، وهو الإيمان .

وعند المعتزلة أن الاسم غير المسمى ، وأن أهل السنة عندهم أن الاسم هو المسمى ، وقد نص على ذلك جماعة من الأئمة كالشافعي والأصمعي .

وعند الأشعري : أن الاسم الذي نختلف فيه ليس هو المسمى ولا هو غير المسمى ما يتحرك به لسان القارئ ، وكل ذلك مخلوق .

وعند أهل السنة أن ذلك قرآن غير مخلوق ، وعند الأشعري أنه مخلوق وليس بقرآن ، وإنما هو عبارة عنه .

وكذلك كثير من مذهبه يقول في الظاهر بقول أهل السنة مجملًا ، ثم عند التفسير والتفصيل يرجع إلى قول المعتزلة ، فالجاهل يقلبه بما يظهره ، والعالم يجهره لما منه يخبره ، والضرر بهم أكثر منه بالمعتزلة لإظهار أولئك ومجاوبتهم أهل السنة وإخفاء هؤلاء ومخالطتهم أهل الحق ، نسأل الله السلامة من كل برحمته » [١] .

لذا قال شيخ الإسلام : « فإن كثيراً من متأخري أصحاب الأشعري خرجوا عن قوله إلى قول المعتزلة أو الجهمية أو الفلاسفة » [٢] .

وقال كذلك : « وأما المتأخرون أي – من الأشاعرة – فإنهم والوا المعتزلة وقاربوهم أكثر ، وقدموهم على أهل السنة والإثبات » [٣] .

ويعد **الرازي** من أبرز من مال إلى المعتزلة من الأشاعرة وتبعهم في كثير من منهجهم في مسألة تقديم العقل على النقل عند التعارض [٤] وهو من المنظرين لمذهب الأشاعرة المتأخرين .

---

(١) كتاب الحرف والصوت للسجزي ، ص ١٧٨ – ١٨١ .

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية ، ص ٧٨ .

(٣) الفتاوى الكبرى (٤٨/٥) .

(٤) انظر : كتاب فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية لمحمد الزركان ، ص ٢٢١ .

ومن هنا يتبين لنا موافقة الأشاعرة للمعتزلة في بعض الأصول ، وإن بالغوا في إظهار المخالفة .

* * *

المبحث العاشر

حيرة بعض علماء الأشاعرة واضطرابهم

أهل الكلام من الأشاعرة وغيرهم هم من أعظم الناس شكًّا واضطرابًا ، وأضعف الناس علمًا ويقينًا ، وهذا أمر يجدونه في أنفسهم ، ويشهده الناس فيهم ، وما زال أئمتهم يخبرون بعدم الأدلة والهدى في طريقتهم حتى قال أبو حامد الغزالي : « أكثر الناس شكًّا عند الموت أهل الكلام » [(١)] .

وقال كذلك : « الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جدًا مشرف على التزلزل بكل شبهة » [(٢)] .

وقال كذلك : « فليت شعري متى نقل عن رسول الله وعن الصحابة إحضار أعرابي أسلم وقوله له : الدليل على أن العالم حادث أي لا يخلو عن الأعراض ، وما لا يخلو من الأعراض عن الحادث فهو حادث » [(٣)] .

وقال **الذهبي** : « وقرأت بخط أبي جعفر أيضًا : سمعت أبا المعالي يقول : قرأت خمسين ألفًا في خمسين ألف ، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة ، وركبت البحر الخضم وغصت في الذي نهى أهل الإسلام ، كل ذلك في طلب الحق ، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد ، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز ، فإن لم يدركني الحق بلطيف بر فأموت على دين العجائز ، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ، فالويل لابن الجويني » [(٤)] .

---

(١) نقض المنطق ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، ص ٧١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(٤) سير أعلام النبلاء (٤٧١/٨) .

وقال الشهرستاني : « فعليكم بدين العجائز فإنه من أسنى الجوائز ، وإذا كان لا طريق إلى المطلوب من المعرفة إلا الاستشهاد بالأفعال ولا شهادة للفعل إلا من حيث احتياج الفطرة واضطرار الخلقة ، فحيثما كان العجز أشد كان اليقين أوفر وآكد ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] لا جرم ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : ٦٢] والمعارف التي تحصل من تعريفات أحوال الاضطرار ، أشد رسوخًا في القلب من المعارف التي هي نتائج الأفكار في حال الاختيار (١) .

وقال كذلك : « أما بعد ... فقد أشار إلى من إشارته غنم ، وطاعته حتم ، أن أجمع مشكلات الأصول وأحل من العقد من غوامضها على أرباب العقول ، لحسن ظنه بي أني وقفت على نهاية النظر وفزت بغايات مطارح الفكر ، ولعله استسمن ذا ورم ونفخ في غير ضرم لعمري :

لقد طفت في تلك المعاهد كلها   وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعًا كف حائر   على ذقن أو قارعًا سن نادم

فلكل عقل ونظر مسرى ومسرح هو سدرة المنتهى ، ولكل قدم مخطا ومجال هو غايته القصوى .. » (٢) .

وقال الرازي : « إن الدلائل التي ذكرها الحكماء والمتكلمون ، وإن كانت كاملة قوية !! إلا أن هذه الطريقة المذكورة في القرآن عندي أنها أقرب إلى الحق والصواب ، وذلك لأن تلك الدلائل دقيقة ، وبسبب ما فيها من الدقة انفتحت أبواب الشبهات وكثرت السؤالات ، وأما الطريق الوارد في القرآن فحاصله راجع إلى طريق واحد وهو المنع من التعمق والاحتراز عن فتح باب القيل والقال ... ومن ترك التعصب وجرب مثل تجربتي علم أن الحق ما ذكرته ... » (٣) .

---

(١) نهاية الإقدام ، ص ٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣ .

(٣) المطالب العالية (٤٣٦/١) .

وأملى في شدة مرضه وصية على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصفهاني وذلك يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر المحرم سنة ست وستمائة وفيها : « اعلموا أنني كنت رجلًا محبًا للعلم فكنت أكتب في كل شيء ، لا أقف على كمية وكيفية سواء كان حقًا أو باطلًا ، أو غثًا أو سمينًا ، إلا أن الذي نظرته في الكتب المعتبرة لي أن هذا العالم المحسوس تحت تدبيره مدبر منزه عن مماثله المتحيزات والأعراض ، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة ، ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيه فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم ؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات ، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية ، فلهذا أقول : كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء في القوم والأزلية والتدبير والفعالية ، فذاك هو الذي أقول به وألقى الله عليه به ، وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض ، فكل ما ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد ، فهو كما هو ، والذي لم يكن كذلك أقول : يا إله العالمين إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، تلك ما مر به قلمي أو خطر ببالي فاستشهد علمك وأقول : إن علمت مني أني أردت به تحقيق باطل أو إبطال حق فافعل بي ما أنا أهله ، وإن علمت مني ما سعيت إلا في تقرير ما أعتقد أنه هو الحق ، وتصورت أنه الصدق ، فلتكن رحمتك مع قصدي لا مع حاصلي فذاك جهد المقل ... وأقول : ديني متابعة محمد سيد المرسلين ، وكتابي هو القرآن العظيم ، وتعويلي في طلب الدين عليهما ... » (١) .

ومن ذلك ما جاء في لسان الميزان : « وكان مع تبحره في الأصول يقول : من التزم دين العجائز فهو الفائز » (٢) .

---

(١) عيون الأنباء ، ص ٤٦٦ - ٤٦٨ .

(٢) لسان الميزان ، ابن حجر (٤/٤٢٧) .

ومن ذلك ما قاله ابن أبي ميبعة أيضاً : « أنشدني بديع الزمان البندهي مما سمعه من الشيخ فخر الدين الرازي لنفسه فمن ذلك قال :

نهاية إقدام العقول عقال	وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في عقلة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا (١)

ومن ذلك : « قال ابن الصلاح : أخبرني القطب الطوعاني مرتين : أنه سمع فخر الدين الرازي يقول : يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام وبكى ، وروي عنه أنه قال : لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فلم أجد تروي غليلًا ولا تشفي عليلًا ، ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن أقرأ في التنزيل : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ [سورة محمد : ٣٨] وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [سورة الشورى : ١١] و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص : ١] وأقرأ في الإثبات ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [سورة طه : ٥] ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [سورة النحل : ٥٠] ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [سورة فاطر : ١٠] وأقرأ أن الكل من الله قوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة النساء : ٧٨] .

ثم قال : وأقول من صميم القلب من داخل الروح : إني مقر بأن كل ما هو الأكمل والأفضل والأعظم والأجل فهو لك ، وكل ما هو عيب ونقص فأنت منزه عنه » (٢) .

ومن هنا يتبين حيرة أهل الكلام واضطرابهم وكثرة شبهاتهم فلم يوصلهم علم الكلام إلى برد اليقين ، وحلاوة الإيمان .

---

(١) وفيان الأعيان (٤/٢٥٠) .

(٢) شذرات الذهب (٥/٢١ - ٢٢) ، وأورد ابن كثير جزء من هذا الكلام في البداية والنهاية (١٣/ ٦١) .

المبحث الحادي عشر

نصيحة تائب من علم الكلام الأشعري

وقفت على رسالة في إثبات الاستواء والفوقية ، وهي مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنبرية [١] للعلامة أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني ، يحكي فيها توبته من علم الكلام الأشعري ، فرأيت أن أختم هذا الفصل بتلخيص تلك النصيحة .

يقول رحمه الله تعالى : « وبعد فإن هذه النصيحة كتبتها إلى إخواني في الله أهل الصدق والإخلاص والوفاء لما تعين علي من محبتهم في الله ونصيحتهم في صفات الله عز وجل ، فإن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ... أعرفهم أيدهم الله بتأييده ووفقهم لطاعته ومزيده أنني كنت برهة من الدهر متحيرًا في ثلاث مسائل : مسألة الصفات ، ومسألة الفوقية ، ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد ، وكنت متحيرًا في الأقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك من تأويل الصفات وتحريفها ، أو إمرارها والوقوف عليها ، أو إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ، فأجد النصوص في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ناطقة مبينة بحقائق هذه الصفات ، كذلك في إثبات العلو والفوقية ، وكذلك في الحرف والصوت ، ثم أجد المتأخرين من المتكلمين في كتبهم من يأول الاستواء بالقهر والاستيلاء ، ويأول النزول بنزول الأمر ، ويأول اليدين بالقدرتين أو النعمتين ، ويأول القدم بقدم صدق عند ربهم وأمثال ذلك ، ثم أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله معنى قائمًا بالذات بلا حرف ولا صوت ، ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم ، وممن ذهب إلى هذه الأقوال وبعضها قوم لهم في صدري منزلة مثل طائفة من فقهاء الأشعرية الشافعيين لأني على مذهب الشافعي

---

(١) الرسائل المنبرية (١٧٤/١) وقيل أنها لابن شيخ الحزاميين .

عرفت فرائض ديني وأحكامه فأجد مثل هؤلاء الشيوخ الأجلة يذهبون إلى مثل هذه الأقوال ، وهم شيوخي ولي فيهم الاعتقاد التام لفضلهم وعلمهم ، ثم إنني مع ذلك أجد في قلبي من هذه التأويلات من حزازات لا يطمئن قلبي إليها ، وأجد الكدر والظلمة منها ، وأجد ضيق الصدر وعدم انشراحه مقرونًا بها فكنت كالمتحير المضطرب في تحيره المتململ من قلبه في تقلبه وتغيره ، وكنت أخاف من إطلاق القول بإثبات العلو والاستواء والنزول مخافة الحصر والتشبيه ، ومع ذلك فإذا طالعت النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله أجدها نصوصًا تشير إلى حقائق هذه المعاني ...

فصل

إذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبه التأويل وعمارة التعطيل ، وحماقة التشبيه والتمثيل ، وأثبتنا علو ربنا سبحانه وفوقيته واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته ، والحق واضح في ذلك والصدر ينشرح له ، فإن التحريف تأباه العقول الصحيحة مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره ، والوقوف في ذلك جهل وعي مع كون أن الرب تعالى وصف لنا نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها ، فوقوفنا عن إثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه في تعريفنا إياها ، فما وصف لنا نفسه بها إلا لنثبت ما وصف به نفسه لنا ، ولا نقف في ذلك ، وكذلك التشبيه والتمثيل حماقة وجهالة فمن وفقه الله للإثبات بلا تحريف ولا تكييف ، ولا وقوف فقد وقع على الأمر المطلوب منه إن شاء الله .

فصل

والذي شرح الله صدري في حال هؤلاء الشيوخ الذين أولوا الاستواء بالاستيلاء والنزول بنزول الأمر واليدين بالنعمتين والقدرتين هو علمي بأنهم ما فهموا من صفات الرب إلا ما يليق بالمخلوقين ، فما فهموا عن الله استواء يليق به ولا نزولًا يليق به ، ولا يدين تليق بعظمته بلا تكييف ولا تشبيه ، فلذلك حرفوا الكلم عن مواضعه وعطلوا ما وصف الله تعالى به نفسه .

الفصل الثاني

حوار حول دعوى الأشاعرة

إن الله لا داخل العالم ولا خارجه

وفيه المباحث التالية :

١ - **التمهيد** : في بيان أن النصوص الشرعيه متواترة على علو الله تعالى على العرش .

٢ - **المبحث الأول** : الرد على الأشعرية في دعواهم أن الله لا داخل العالم ولا خارجه .

٣ - **المبحث الثاني** : ذكر شبهة والجواب عليها .



تمهيد :

تواترت النصوص من الكتاب والسنة على علو الله [١] سبحانه وتعالى على عرشه وأنه بائن من خلقه ، وأجمع السلف على ذلك ، كما حكاه الأشعري عنهم في رسالة إلى أهل الثغر فقال : « وأجمعوا أنه فوق سماواته على عرشه دون أرضه [٢] .

فكلهم يشهدون بألسنتهم وفطرهم على أن الله فوق العالم ، وعليه فطرة المسلمين وعلمائهم وجهالهم ، وأحرارهم ومماليكهم ، وذكرانهم وإناثهم وأطفالهم، وكل من دعا الله تعالى [٣] .

ولم يخالف في ذلك أحد من بني آدم إلا شرذمة من الفلاسفة والجهمية وتابعهم، طوائف من الأشاعرة والماتريدية ، حيث ادعوا أن الله تعالى لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوق العالم ولا تحته ، ولا أمام العالم ولا خلفه ، ولا متصلًا بالعالم ولا منفصلًا عنه .

---

(١) بلغت الأدلة في العلو أكثر من ألف دليل ، كما صرح بذلك شيخ الإسلام وابن القيم ، وابن أبي العز الحنفي ، وانظر تلك الأدلة في كتاب إثبات العلو لابن قدامة ، والعلو والعرش وكلاهما للذهبي ، واجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية .

(٢) رسالة أهل الثغر ، ص٧٥ .

(٣) توحيد ابن خزيمة (٢٤٥/١) .

المبحث الأول

الرد على الأشعرية في دعواهم

إن الله لا داخل العالم ولا خارجه

اعلم أرشدك الله للحق أن قول من قال : إن الله لا داخل العالم ولا خارجه قول باطل من وجوه :

الوجه الأول :

أنه مصادم لنصوص الكتاب والسنة الصحيحة ، فقد تقدم أن نصوص الكتاب والسنة تواترت على أن الله تعالى فوق العالم عالٍ على خلقه فوق عباده مستوٍ على عرشه .

فلو كانت هذه العقيدة من العقائد الإسلامية لجاء النص عليها في كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ ، بل نرى نصوصًا لا تعد ولا تحصى ضد هذه العقيدة فكيف نجعل هذه العقيدة هي العقيدة الصحيحة ؟!

ولم يأت نص واحد لا في الكتب السماوية ، ولا في أحاديث الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، على أن الله تعالى لا داخل العالم ولا خارجه إلى آخر ذلك الهذيان .

الوجه الثاني :

أن هذه العقيدة مخالفة لعقيدة جميع الأنبياء والمرسلين ، وعقيدة الصحابة والتابعين وعقيدة أئمة هذا الدين ، فقد تقدم أن بني آدم كلهم أجمعوا على أن الله تعالى فوق العالم ، وأنه عالٍ على عرشه ، وأن هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة الطائفة المنصورة الفرقة الناجية أصحاب الحديث في القديم والحديث ، ولم يخالف في ذلك إلا الفلاسفة والجهمية المعطلة فكيف تعد هذه العقيدة عقيدة لأهل السنة والجماعة ؟! بل هي من أعظم عقائد أهل البدع والتعطيل والتحريف .

الوجه الثالث :

أنه مصادم لعقيدة جميع أئمة الإسلام ونصوص أعلام هذا الدين ، فقد صرح أئمة الإسلام بأن الله تعالى فوق عرشه عالٍ على خلقه بائن عن العالم .

وفيما يلي نماذج من نصوص بعض هؤلاء الأئمة الأعلام :

١ - الإمام أبو حنيفة (١٥٠ هـ) :

فقد قال رحمه الله : « من قال لا أعرف ربي في السماء ، أو في الأرض فقد كفر ، وكذا من قال إنه على العرش ، ولا أدري العرش أفي السماء ، أو في الأرض ، والله يدعى من أعلى لا من أسفل ؛ لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء ، وعليه ما روي في الحديث :

أن رجلًا أتى النبي ﷺ بأمة سوداء ، فقال : وجب علي عتق رقبة مؤمنة فتجزئ هذه ، فقال لها النبي ﷺ : « أمؤمنة أنت ؟ فقالت : نعم ، فقال : أين الله ، قالت : فأشارت إلى السماء ، فقال : « أعتقها إنها مؤمنة » [١] .

أقول : تدبر أيها المسلم في نص هذا الإمام تجد فيه ما يلي :

١ - تكفير الإمام أبي حنيفة لمن شك في فوقية الله تعالى على عرشه .

٢ - جواز السؤال عن الله تعالى بأين .

٣ - جواز الجواب عنه بأنه في السماء .

٢ - إمام أهل الشام الأوزاعي (١٥٧ هـ) : لقد حكى إجماع أئمة الإسلام عن الصحابة والتابعين على أن الله تعالى فوق عرشه حيث يقول : « كنا والتابعون متوافرون نقول : إن الله تعالى ذكره فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة به من صفاته جل وعلا » [٢] .

---

(١) الفقه الأبسط رواية أبي مطيع البلخي بتحقيق الكوثري ، ص ٤٩ - ٥٢ ، ومع شرحه للسمرقندي ، ص ١٧ .

(٢) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤٠١/٤) ، وذكره البخاري معلقًا في خلق أفعال العباد ، ٥ ، ٢٤ .

٣ – الإمام مالك إمام دار الهجرة (١٧٩ هـ) :

فقد قال : « الله في السماء وعلمه في كل مكان » [١] .

٤ – الإمام شيخ الإسلام أحد أعلام السنة والحديث والزهد **عبد الله بن المبارك** (١٨١ هـ) :

فقد قال رحمه الله تعالى مبينًا عقيدة أهل السنة والجماعة : « نعرف ربنا فوق سبع سماوات على العرش استوى بائن من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية أنه ههنا في الأرض ، بل على العرش استوى » [٢] .

٥ – الإمام عبد الرحمن بن مهدي (١٩٨ هـ) :

فقد قال : « إن الجهمية أرادوا أن ينفوا أن يكون الله قد كلم موسى ، وأن يكون على العرش ، أرى أن يستتابوا وإلا ضربت أعناقهم » [٣] .

٦ – عالم الري وإمام الحنفية في وقته : **هشام بن عبد الله الرازي** (٢٢١ هـ) :

فقد حبس رجلًا في تهمة التجهم فتاب فجيء به إليه يمتحنه ، فقال له : « أتشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه ؟

فقال ذلك الجهمي المسجون : لا أدري ما بائن من خلقه ؟ فقال هشام : ردوه إلى الحبس ، فإنه لم يتب » [٤] .

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في السنة (١/١١١ ، ٣٠٧) ، والدارمي في الرد على الجهمية ٣٣ ، وفي الرد على المريسي : ٢٤ ، ١٠٣ ، والبيهقي في الأسماء والصفات : ٤٢٧ ، ورواه الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث ، وابن قدامة في العلو : ص ١١٧ – ١١٨ ، والذهبي في العلو : ص ١١٠ ، وذكره البخاري مستدلاً به على علو الله تعالى وعلى أنه عقيدة أهل السنة والجماعة ، انظر : خلق أفعال العباد ، ١٥ ، وصححه شيخ الإسلام في الحموية : ص ٥٦ ، وضمن مجموعة الفتاوى (٥/١٨٤) .

(٢) رواه أبو داود في مسائله : ٢٦٢ ، وعبد الله بن أحمد في السنن (١/١١٩ – ١٢٠) ، وصححه الذهبي وابن القيم والألباني ، وانظر : العلو : ص ١١٨ ، واجتماع الجيوش ص ٢١٤ – ٢١٥ ، ومختصر العلو : ص ١٦٩ – ١٧١ ، وقال شيخ الإسلام : (رواه ابن أبي حاتم وغيره بأسانيد ثابتة) انظر : المراكشية : ص ٢٢ ، ومجموع الفتاوى (٥/١٨٤) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) رواه ابن أبي حاتم كما في درء التعارض (٦/٢٦٥) ، والحموية ص : ٥٣ ، ومجموع الفتاوى (٥/٤٩) ، والعلو للذهبي ، ص ١٣٣ ، ومختصره : ص ١٨١ ، ورواه الهروي في ذم الكلام (ق١٢٠ – أ) كما في مختصر العلو للألباني ، ص ١٨١ .

٧ – الإمام **علي بن عبد الله المديني** شيخ البخاري (٢٣٤ هـ) :

فقد سئل هذا الإمام : ما قول أهل السنة والجماعة ؟ فأجاب رحمه الله تعالى قائلًا : « يؤمنون بالرؤية وبالكلام ، وأن الله عز وجل فوق السماوات على العرش استوى » [١] .

٨ – الإمام **قتيبة بن سعيد** أحد أعلام الإسلام (٢٤٠ هـ) :

فقد قال رحمه الله تعالى مبينًا عقيدة أهل السنة والجماعة : « هذا قول الأئمة في الإسلام والسنة والجماعة : نعرف ربنا في السماء السابعة على عرشه ، وعلمه في كل مكان » [٢] .

أقول : هذا النص من هذا الإمام في غاية الوضوح والصراحة في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة ، وتوضيح عقيدة أن الله تعالى فوق العالم خارج عنه .

٩ – ١٠ – الإمامان الجليلان : **أبو حاتم وأبو زرعة الرازيان** :

فقد قالا : « أجمع أئمة الإسلام في جميع الأمصار في الحجاز والعراق ومصر وغيرهما على إثبات صفات الله تعالى ، وأنه تعالى على عرشه بائن من خلقه ، وعلمه في كل مكان ، ومن قال غير هذا فعليه لعنة الله » [٣] .

١٠ – إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة صاحب الصحيح والتوحيد (٣١١ هـ) فقد قال :

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية والعلو .

(٢) راجع : بيان تلبيس الجهمية (٣٨/٢) ، والعلو للذهبي ١٢٨ ، واجتماع الجيوش الإسلامية ، ص ٢٣١ .

(٣) رواه ابن أبي حاتم في أصل السنة واعتقاد الدين ، ١٦٦ – ١٦٩ ، مخطوط الظاهرية بدمشق مجموع رقم (١١) والمطبوع في مجلة الجامعة السلفية ببنارس في الهند سنة ١٤٠٣ هـ ، وأصل السنة : ٣٧ – ٤٣ ط : دار الفرقان ، ورواه من طريق اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٧٦/١ – ١٨٢) وعن طريقه ابن قدامة في العلو : ص ١٢٥ – ١٢٦ ، والذهبي في العلو : ص ١٣٧ – ١٣٨ ، وقال شيخ الإسلام : « هذا مشهور عن الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم في معتقده » انظر : بيان تلبيس الجهمية (٤١/٢) ، وانظر : تهذيب السنن لابن القيم (١١٤/٧) .

« من لم يقر بأن الله تعالى على عرشه قد استوى فوق سبع سماواته بائن من خلقه فهو كافر يجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه ، وألقي على بعض المزابل حيث لا يتأذى المسلمون والمعاهدون بنتن ريح جيفته ، وكان ماله فيئًا لا يرثه أحد من المسلمين ؛ إذ المسلم لا يرث الكافر »(١) .

الحاصل : أن كثيراً من أئمة الإسلام قد كفروا الجهمية لأجل إنكارهم علو الله تعالى على عرشه وفوقيته على عباده ، وقد تبين من هذه النصوص التي سقناها عن هؤلاء الأئمة الأعلام : أن العقيدة الصحيحة الإسلامية السنية هي : أن الله تعالى على عرشه فوق الخلق عالٍ على الكون بائن عن العالم .

الوجه الرابع :

أن قولهم مستلزم لأن يكون الله تعالى معدومًا ، بل ممتنعًا ؛ لأن بداهة العقول تشهد شهادة لا تقبل النقيض أن أي شيء يكون هذا صفته فهو معدوم بل ممتنع البتة .

لأن أي موجود إما أن يكون داخلًا في هذا العالم أو خارجا عنه ، أو متصلًا بالعالم أو منفصلًا عنه ، أو فوق العالم أو تحته ، ولا يمكن أن يكون شيئًا موجودًا متصلًا بالعالم ولا منفصلًا عنه ، ولا داخلًا في العالم ولا خارجًا عنه ، ولا فوق العالم ولا تحته .

فإن يكن هذا : فلا يكون شيئًا معدومًا بل ممتنعًا .

هكذا صرح كثير من أئمة الإسلام على هؤلاء الجهمية أن قولهم مستلزم لكون الله تعالى معدومًا ، بل ممتنعًا ، وإليكم نماذج من نصوص بعض أئمة الإسلام لتكون فيها عبرة :

---

(١) رواه الحاكم في معرفة علوم الحديث : ٨٤ ، وفي تاريخ نيسابور كما قال الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث : ٢٠ ، والهروي في ذم الكلام (٢/١٢٤/٦) كما قاله الألباني في مختصر العلو : ص ٢٢٦ ، ورواه ابن قدامة في العلو ، وصححه شيخ الإسلام في الحموية : ص ٥٦ ، ومجموع الفتاوى (٥٢/٥) ، وانظر : درء التعارض (٢٦٤/٦) .

١ – قول كثير من أهل العلم في هؤلاء المعطلة والممثلة لعلو الله تعالى ولكلامه :

« المعطل يعبد عدمًا ، والممثل يعبد صنمًا ، والمعطل أعمى ، والممثل أعشى ، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه » .

٢ – الإمام **محمد بن الحسن الشيباني** (١٨٩ هـ) فقد قال : « ... فمن قال بقول الجهم فقد فارق الجماعة ؛ لأنه قد وصفه بصفة لا شيء » [١] .

٣ – إمام أهل السنة **أحمد بن حنبل** (٢٤١ هـ) ، فقد قال في شرح عقيدة من أنكر علو الله تعالى : « فعند ذلك يتبين للناس أنهم لا يؤمنون بشيء » [٢] .

٤ – الإمام **عبد العزيز الكناني** (٢٤٠ هـ) قال : قال لي أحد الجهمية : « أقول : إن الله في كل مكان لا كالشيء في الشيء ، ولا كالشيء على الشيء ، ولا كالشيء خارجًا عن الشيء ولا مباينًا للشيء ، فقلت : فقد دللت بالقياس والمعقول على أنك لا تعبد شيئًا ... » [٣] .

٥ – أقول : « لقد ذكر شيخ الإسلام هذا النص عن الكناني ثم علق عليه بقوله : فهذا عبد العزيز يبين أن القياس والمعقول يوجب أن ما لا يكون في الشيء ولا خارجًا عنه ، فإنه لا يكون شيئًا ، وأن ذلك صفة معدوم » [٤] .

٦ – وقال الإمام **ابن كلاب** إمام الكلابية والأشعرية جميعاً (٢٤٠ هـ) في الرد على المعطلة : « وأخرج [٥] من النظر والخبر قول من قال : « إن الله لا في العالم ولا خارج منه ، فنفياه نفيًا مستويًا ، لأنه لو قيل له : صفه بالعدم ، ما قدر أن يقول فيه أكثر منه ... ، فإن قالوا : لا فوق ولا تحت أعدموه ، لأن ما كان لا تحت ولا فوق

---

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤٣٢/٣ – ٤٣٣) ، وانظر الحموية ص ٥٤ ، ومجموع الفتاوى (٥٠/٥) .

(٢) انظر : الرد على الجهمية ، للإمام أحمد ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .

(٣) درء التعارض (١١٨/٦ – ١١٩) ، ومجموع الفتاوى (٣١٧/٥) .

(٤) المصدرين السابقين .

(٥) هكذا في الأصول ، ولعل الصواب : و « خرج » من اللازم لا من المتعدي .

فعدم ، فإذا قيل لهم : فهو لا مماس للعالم ولا مبائن للعالم ، قيل لهم : فهو بصفة المحال ... قيل لهم : فأخبرونا عن معبودكم ؟ مماس هو أم مبائن ؟ فإذا قالوا : لا يوصف بهما قيل لهم : فصفة إثبات خالقنا كصفة عدم المخلوق ، فلم لا تقولون صريحًا : إن الله عدم ... » [(١)] .

أقول : نص هذا الإمام صريح في أن من قال : إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه ، ولا فوقه ولا تحته ، فقد وصف الله بصفة العدم والامتناع .

٧ - السلطان العادل كاسر الأصنام **محمود بن سبكتكين** (٤٢١ هـ) لما سمع ابن فورك الأشعري : ينفي فوقية الله على خلقه ، قال له : فلو أردت أن تصف المعدوم كيف تصفه بأكثر من هذا ؟ وقال هذا السلطان في الرد على ابن فورك أيضًا : فرق لي بين هذا « الرب » الذي تصفه وبين « المعدوم » [(٢)] .

٨ - حافظ المغرب **الإمام ابن عبد البر** (٤٦٣ هـ) قال : « وهم [أي المعطلة] [(٣)] نافون للمعبود يلاشون أي يقولون : لا شيء ، [(٤)] والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهم أئمة الجماعة [(٥)] » .

٩ - شيخ الإسلام **ابن تيمية** (٧٢٨هـ) فقد رفع إليه هذا السؤال في حق الأشعرية والماتريدية والجهمية :

يا منكرًا أن الإله مباين	للخلق يا مفتون بل يا فاتن
هب قد ضللت فأين أنت فإن تكن	أنت المباين فهو أيضًا بائن
أو قلت لست مبائنًا قلنا إذن	بالاتحاد أو الحلول تشاحن
أو قلت ما هو داخل أو خارج	هذا يدل بأن ما هو كائن

---

(١) درء التعارض (١١٩/٦ - ١٢١) ، ومجموع الفتاوى (٣١٧/٥ - ٣١٩) ، والصواعق المرسلة (١٢٤١/٤) ، واجتماع الجيوش ٢٨٢ - ٢٨٣ من كتاب المجرد لابن فورك .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٧/٣) ، درء التعارض (٢٥٣/٦) ، والصواعق المرسلة (١٢٨٧/٤) .

(٣) الزيادة مني للإيضاح .

(٤) الزيادة من الصواعق المرسلة (١٢٨٩/٤) ولم أجدها في التمهيد المطبوع .

(٥) التمهيد ، لابن عبد البر (١٤٥/٧) .

إذ قد جمعت نقائضًا ووصفته عدمًا بها هل أنت عنها ضاعن(١)

فارجع وتب من قال مثلك إنه لمعطل والكفر فيه كامن(٢)

فأجاب شيخ الإسلام :

« إن الذي يقول إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوق ولا تحت ، ولا مباين عنه ولا متصل به ، فقد جعل الله تعالى معدومًا بل ممتنعًا ، وهذا اللازم لا محيد منه » .

١٠ - **الإمام الذهبي** (٧٤٨ هـ) فقد قال : « مقالة السلف وأئمة السنة بل الصحابة والله ورسوله ﷺ والمؤمنين : أن الله فوق سماواته ... ومقالة الجهمية الأولى أنه في جميع الأمكنة ، ومقالة متأخري المتكلمين [من المعتزلة والماتريدية والأشعرية] أن الله تعالى ليس في السماء ولا على العرش ، ولا على السماوات ، ولا في الأرض ، ولا داخل العالم ولا خارج العالم ، ولا هو بائن عن خلقه ، ولا هو متصل بهم .. قال لهم أهل السنة والأثر ... : فإن هذه السلوب نعوت المعدوم تعالى الله جل جلاله عن العدم ، بل هو متميز عن خلقه موصوف بما وصف به نفسه في أنه فوق العرش بلا كيف »(٣) .

أقول : أرجو أن يتدبر كلام هذا الإمام ، فقد ذكر في مسألة علو الله تعالى ثلاثة مذاهب :

الأول : مذهب أهل السنة والجماعة أصحاب الحديث : وهو أن الله فوق العالم بائن من خلقه عالٍ على العرش ، وأن هذا هو قول الله ورسوله ﷺ وجميع المؤمنين .

---

(١) هكذا في الأصل ، ولم أجد مادة « ضعن » في اللغة بالضاد المعجمة والعين المهملة ، ولعله ظاعن بالظاء المعجمة والعين المهملة بمعنى السير ، أو ضاغن بالضاد والغين المعجمتين ، بمعنى الميل ، راجع : القاموس ، ١٥٦٤ ، ١٥٦٦ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى (٥/٢٦٧ - ٣٢٠) .

(٣) العلو ١٠٧ ، ١٩٥ ، مختصر العلو ١٤٦ - ١٤٧ ، ٢٨٧ .

الثاني : قول أصحاب جهم بن صفوان : وهو أن الله تعالى في كل مكان ، وهو قول الحلولية والصوفية أيضًا .

الثالث : قول المعطلة كالمعتزلة والماتريدية والأشعرية ، وهو أن الله تعالى لا فوق العالم ولا تحته ، ولا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه ، وهو قول الفلاسفة أمثال ابن سينا والفارابي والطوسي وغيرهم من الملاحدة الزنادقة .

١١ - **الإمام ابن القيم** رحمه الله (٧٥١ هـ) فقد قال :

فاحكم على من قال ليس بخارج ... عنها ولا فيها بحكم بيان
بخلافه الوجهين والإجماع والـ ... ـعقل الصريح وفطرة الرحمن
فعليه أوقع حد معدوم وذا ... حد المحال بغير ما فرقان
يا للعقول إذا نفيتم مخبرًا ... ونقيضه هل ذاك في إمكان ؟!
إذا كان نفي دخوله و خروجه ... لا يصدقان معًا لذي الإمكان
إلا على عدم صريح نفيه ... متحقق ببداهة الإنسان [(١)]

١٢ - ١٥ - وهكذا نرى الإمام **ابن أبي العز الحنفي** (٧٩٢) **والشوكاني** (١٢٥٠ هـ) **ومحمود الآلوسي** (١٢٧٠ هـ) وحفيده **محمود شكري** (١٣٤٢هـ) : قد صرحوا بأن عقيدة هؤلاء المعطلة من قولهم : إن الله لا داخل العالم ولا خارجه مستلزمة لكون الله تعالى معدومًا بل ممتنعًا .

والحاصل : أنه ثبت أن صاحب كتاب (حسن المحاججة) مخالف لعقيدة أئمة الإسلام .

الوجه الخامس :

تبين أن قول الأشاعرة ليس قوله قول أهل الإسلام أهل السنة والجماعة ، بل هو

---

(١) النونية ص ٥٥ ، وشرحها توضيح المقاصد (١/٣٨٦ - ٣٨٩) وشرحها للهراس (١/١٧٦ - ١٧٧) وتوضيح الكافية الشافية للسعدي ، ص ٨٥ .

قول المعطلة والفلاسفة من الذين تفلسفوا في الإسلام ، ولعبوا به كما لعب بولس بالنصرانية ، أمثال **ابن سينا** (٤٢٨) هـ فقد قال :

« ... إن التحقيق الذي ينبغي أن يرجع إليه في صحة التوحيد عن الإقرار بالصانع موحدًا عقد ساعي الكم والكيف ، والأين والمتى ، والوضع والتغير ، حتى يعبر الاعتقاد به أنه ذات واحدة لا يمكن لها شريك في النوع ، أو يكون لها جزء وجودي كمي أو معنوي ، ولا يمكن أن تكون خارجة عن العالم أو داخلة فيه ، ولا بحيث تصح الإشارة إليه إنه هناك ، ممتنع التقاؤه إلى الجمهور »[١] .

أقول : الشاهد في كلام ابن سينا هذا هو قوله : « أنه ذات واحدة لا يمكن أن تكون خارجة عن العالم أو داخلة فيه ، ولا بحيث تصح الإشارة إليه أنه هناك » .

الوجه السادس :

أن قول الأشعرية في أن الله لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا فوقه ولا تحته ، ولا متصل به ولا منفصل عنه رفع للنقيضين ، ورفع النقيضين باطل بإجماع العقلاء .

ولقد صرح كثير من أئمة الإسلام أن قول المتكلمين : إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا فوقه ولا تحته ، ولا متصل به ولا منفصل عنه ، قول برفع النقيضين[٢] .

الوجه السابع :

أن قول الأشعرية إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل به ولا منفصل

---

(١) الرسالة الأضحوية في أمر المعاد ، ص ٤٤ - ٥١ ، تحقيق الدكتور : سليمان دنيا ، ط دار الفكر العربي بالقاهرة ، مطبعة الاعتماد بمصر (١٣٦٨ - ١٩٩٤ م) الطبعة الأولى ، والرسالة الأضحوية ص ٩ - ١٠٣ ، تحقيق : حسن عمي ، ط المؤسسة الجامعية للدراسات بيروت ، ط الثانية (١٤٠٧ - ١٩٨٧) ، وانظر : نص ابن سينا هذا في درء التعارض (٥/١٠ - ١٨) ، والصواعق المرسلة (١٠٩٧/٣ - ١١٠٥) ومختصر الصواعق (١٥٤/١ - ١٥٦) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٩/٣ - ٤٠) ، ونقض المنطق ، ص ٥١ ، ومجموع الفتاوى (٦٠/٤ - ٦١) والقصيدة النونية ص ٥٥ ، وتوضيح المقاصد (٣٨٦/١ - ٣٨٩) ، وتوضيح الكافية : ص٥٨ - ٥٩ ، وشرح الهراس للنونية (١٧٦/١ - ١٧٧) .

عنه ، ولا فوق العالم ولا تحته ، قول مخالف لبداهة العقول ، كما أنه مخالف للعقل الصحيح والفطرة السليمة ، والإجماع إجماع أهل السنة والجماعة ؛ لأن الله تعالى لما خلق هذا العالم هل خلقه داخل ذاته أم خلقه خارجًا عنه ، فإن قالوا خلقه في داخل ذاته فقد كفروا ، وإن قالوا قد خلقه خارج ذاته فقد اعترفوا بالحق الذي أنكروه ، وهو أن الله خارج عن هذا العالم وفوقه ، ولأن الله تعالى موجود في الخارج ، والموجود في الخارج لابد أن يكون داخلًا في هذا الكون ، أو أن يكون خارجًا عنه ، وكذا إما أن يكون متصلًا بالعالم ، أو منفصلًا عنه ، وأما أن يكون بحيث لا يكون لا داخل في العالم ولا خارجًا عنه ، فهذا شيء مخالف لبداهة العقول بل هو معدوم محض ، بل ممتنع بحت [1] .

والتحقيق أن قول صاحب الأشعرية مخالف لبداهة العقل الصريح ، يقول الإمام ابن القيم :

وسل المعطل عن مسائل خمسة	ترى قواعده من الأركان
قل للمعطل هل إلهنا الـ	معبود حقا خارج الأذهان
فإذا نفى هذا فذاك معطل	للرب حقا بالغ الكفران
وإذا أقر به فسله ثانيا	أتراه غير جميع ذي الأكوان
فإذا نفى هذا وقال بأنه	هو عينها ما ههنا غيران
فقد ارتدى بالاتحاد مصرحا	بالكفر جاحد ربه الرحمن
حاشا النصارى أن يكونوا مثله	وهم الحمير وعابدو الصلبان
هم خصصوه بالمسيح وأمه	وأولاء ما صانوه عن حيوان
وإذا أقر بأنه غير الورى	عبد ومعبود هما شيئان

(١) انظر : الصواعق المرسلة (١٢٧٩/٤ - ١٢٤٢) ، وانظر : الرد على الجهمية للإمام أحمد ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، ومجموع الفتاوى (٢٦٧/٥ - ٣٢٠) ، وانظر : الرد على الجهمية للإمام أحمد ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، ومجموع الفتاوى (٢٦٧/٥ - ٣٢٠) ، والصواعق المرسلة (١٢٤١/٤ - ١٢٤٢ ، ١٢٧٩ ، ١٣٠٩ ، ١٣٣٩) ، والقصيدة النونية ، ص ٥٤ - ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، وتوضيح المقاصد (١/ ٣٨٥ - ٤٨٦) وشرحها للهراس (١٧٣/١ - ١٧٦) .

فاسأله هل هذا الورى في ذاته ... أم ذاته فيه هنا أمران
وإذا أقر بواحد من ذينك الـ ... أمرين قبل خده النصراني
ويقول أهلا بالذي هو مثلنا ... خشداشنا وحبيبنا الحقاني
وإذا نفى الأمرين فاسأله إذا ... هل ذاته استغنت عن الأكوان
فلذاك قام بنفسه أم قام بالـ ... أعيان كالأعراض والأكوان
فإذا أقر وقال : بل هو قائم ... بالنفس فاسأله وقل ذاتان

إلى آخر كلام ابن القيم رحمه الله تعالى [١] .

فيقال للأشاعرة : هل الله تعالى عندكم موجود ذهني أم موجود خارجي ؟

فإن قلتم إنه موجود ذهني فقط فقد كفرتم كفرًا بواحًا حيث أنكرتم وجود ربكم ، وإن قلتم هو موجود بوجود خارجي نقول لكم : هل الله تعالى عين هذا الكون أم غيره ؟

فإن قلتم : هو عين هذا الكون ، فقد بحتم بعقيدة الاتحادية ، وإن قلتم : هو غير هذه الأكوان ، نقول لكم : هل الله تعالى في هذه الأكوان أم الأكوان في الله تعالى أم الله تعالى خارج عن هذه الأكوان ؟ فإن قلتم إن الله في هذ الأكوان فقد قلتم بعقيدة الحلولية الذين هم أكفر من النصارى واليهود .

وإن قلتم : إن الأكوان في الله تعالى فقد ارتكبتم كفرًا آخر حيث جعلتم الله محلًا للمخلوقات وظرفًا لها .

وإن قلتم : إن الله تعالى خارج عن هذه الأكوان فقد اعترفتم بالحق ، وهدمتم بنيانكم .

وإن قلتم : إن الله تعالى لا داخل العالم ولا خارجه ، فقد كابرتم بداهة العقول ، وخالفتم العقل والنقل والإجماع والفطرة في آن واحد .

---

(١) القصيدة النونية ص ٥٦ - ٥٧ ، وشرحها توضيح المقاصد (٣٩٣/١ - ٣٩٦) وشرح النونية للهراس (١٨١/١ - ١٨٤) .

وجعلتم الله تعالى عدمًا محضًا ، بل ممتنعًا بحتًا ، والله المستعان وعليه التكلان .

هذا وللإمام ابن أبي العز الحنفي (٧٩٢ هـ) والمفسر الآلوسي (١٢٧٠) وابنه نعمان الآلوسي (١٣١٧ هـ) وحفيده محمود شكري الآلوسي (١٣٤٢ هـ) كلام قيم متين مهم إلى الغاية في إبطال قول القائلين بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه ، وقطع دابرهم ، وبيان أنهم مناقضون للنقل والعقل ، وأن قولهم هذا مخالف لبداهة العقول الضرورية ، (وأنه قد علم العقلاء كلهم بالضرورة : أن ما كان وجوده كذلك [أي خارج الأذهان في الواقع] .

فهو إما داخل العالم ، وإما خارج عنه ، وإنكار ذلك إنكار ما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية بلا ريب) [١] .

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٣١٨ - ٣١٩ ، ٣٢٥ ، وروح المعاني (١١٥/٧) ، وجلاء العينين ص (٣٥٦ - ٣٥٧ ، ٣٨٧ - ٣٨٨) ، وغاية الأماني (٤٤٥/١) .

المبحث الثاني

بعض شبهات الأشعرية والرد عليها

زعم بعض الأشاعرة أن الله تعالى لو كان فوق العالم خارجاً عنه لزم أن يكون محدودًا ، وأن يكون في جهة ومكان . [١] .

والجواب : أن أئمة السنة قد قالوا في مثل هذه الشبهات : إن هذا الشبهات شبهات المعطلة قديمًا وحديثًا .

والجواب عنها من وجهين :

الأول : جواب إجمالي :

وهو أن هذه الألفاظ كلمات مجملة واصطلاحات محدثة لا يجوز قبولها ولا ردها قبل بيان تفسيرها ، ولكن إذا فسرت وعلمنا مراد قائلها ، فإن كان المراد حقاً قبلناه ، وإلا رددناه ، وهذه هي القاعدة السلفية في جميع الكلمات الكلامية والمصطلحات الإجمالية ، وقد صرح بها أئمة السنة [٢] .

والثاني : جواب تفصيلي :

وهو أن نقول : ما المراد من قولهم : « الحد » و « المحدود » ؟

فإن كنتم تعنون أن المراد من الحد أو المحدود : أن يكون الله تعالى محبوساً محاطاً ، فهذا منفي عن الله تعالى بلا ريب ، ولكن لا يلزم من قولنا : « أن الله فوق العالم بائن عنه » أن الله محدود محبوس محاط ، فإن الله تعالى هو المدبر وهو الرب

---

(١) انظر : حسن المحاججة ، ص ٦ .

(٢) انظر : منهاج السنة (١/٢٩٤) ، والتدمرية : ص ٦٥ - ٦٦ ، ومجموع الفتاوى (٣/٤١ - ٤٢) ، وشرح الطحاوية : ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، وجلاء العينين : ص ٣٨٦ .

الخالق للخلق والكون ، وعلى هذا المعنى يحمل قول من نفى الحد عن الله تعالى من بعض السلف [١] .

وإن كنتم تعنون بالحد والمحدود : أن الله تعالى متميز عن الخلق بائن عنه ، فالحد بهذا المعنى صحيح ، ولا يلزم من هذا المعنى أي محذور ؛ لأن الله تعالى فوق العالم عال على العرش .

وعلى هذا المعنى يحمل قول من أثبت الحد لله تعالى من بعض السلف كعبد الله بن المبارك والدارمي ، وهو رواية عن الإمام أحمد [٢] .

فأما الجهة فإن كان المراد بها جهة مخلوقة فلا شك في إبطالها ، فإن الله ليس في جهة بهذا المعنى ، فإن الله ليس داخلًا في شيء من خلقه ، ولا حالًا فيه ؛ لأن الله تعالى ليس في مخلوق ولا المخلوق في الله تعالى ، بل الله تعالى فوق المخلوق كله بائن عن المخلوق .

وإن كان المراد من الجهة جهة عدمية غير مخلوقة بمعنى أن الله تعالى فوق هذا العالم ووراء هذا الكون ، هذا المعنى صحيح .

لأن وراء هذا الكون ليس جهة مخلوقة حتى تكون ظرفاً لله تعالى ، ولا يلزم أن يكون الله مظروفاً فيها ، بل المراد أن الله فوق هذا العالم بائن عن خلقه ، وهذا مراد من أثبت الجهة لله تعالى من السلف [٣] .

---

(١) كالثوري والحمادين وشريك ، وأبي عوانة والطيالسي والطحاوي ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، انظر : شرح الطحاوية : ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، ودرء التعارض (٢/٢٩ - ٣٢) ، والسنة لأحمد رواية الإصطخري : ص ٢٤ .

(٢) انظر : التمهيد لابن عبد البر (٧/١٤٢) ، ورد الدارمي على المريسي ص (٢٣ - ٢٥) ، ودرء التعارض (٢/٣٤) .

(٣) التدمرية : ص ٦٦ - ٦٧ ، ومجموع الفتاوى (٣/٤١ - ٤٢) ، ونقض المنطق : ٥٠ ، ومجموع الفتاوى (٤/٨٥ - ٩٥ ، ٥/٢٦٢ - ٢٦٣ ، ٦/٣٨ - ٤٠) ، ودرء التعارض (١/٢٥٣ - ٢٥٤) ، والتسعينية ضمن الفتاوى الكبرى (٥/٤ - ٥ ، ٢٣ ، ٢١ ، ٣١ ، ٣٧) ، ومختصر الفتاوى المصرية ص ٨٥، وشرح الطحاوية : ص ٢٤٢ - ٢٤٤ ، وروح المعاني (٧/١١٦) ، وجلاء العينين : ص ٣٥٩ ، وغاية الأماني (١/٧٧ ، ٣٩٤) .

فنفي الجهة بهذا المعنى تعطيل للرب تعالى بالكلية ، وليس هذا مذهب أهل السنة بل هو طريق أهل البدع من المعطلة .

قلت : إثبات الجهة لله تعالى بالمعنى الصحيح - وهو الفوقية والعلو - صحيح لا بد منه ، وهو عقيدة الصحابة والتابعين وأئمة هذا الدين من أهل السنة والجماعة أصحاب الحديث الفرقة الناجية الطائفة المنصورة .

وأما إنكار الجهة بهذا المعنى فهو مذهب المعطلة ، فلقد صرح القاضي عياض (٥٤٤ هـ) والنواوي (٦٧٦ هـ) والزبيدي الحنفي (١٢٠٥) : بأن إثبات الجهة هو مذهب المحدثين والفقهاء ، وأن دهاة المتكلمين ينفون الجهة [١] .

وقال ابن رشد (٥٩٥ هـ) : « القول بالجهة : وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة في أول الأول يثبتونها لله سبحانه وتعالى حتى نفتها المعتزلة ، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الشريعة ... ، وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات الجهة » [٢] .

وقال القرطبي (٦٧١ هـ) بعدما ذكر مذهب المعطلة نفاة العلو لله تعالى : « وقد كان السلف الأول لا يقولون بنفي الجهة ، ولا ينطقون بذلك ، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله ، كما نطق كتابه وأخبرت رسله ، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة ... ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء » [٣] .

وأما المكان ، فإن قصد به أنه في شيء مخلوق ، وأن الله تعالى مظروف لظرف مخلوق ، فهذا المعنى باطل ، ولكن لا يلزم من قولنا : « إن الله فوق العالم بائن من خلقه » أنه تعالى مظروف في شيء مخلوق .

وإن كان المراد من المكان ما فوق العالم فهذا المعنى صحيح ؛ لأن الله

---

(١) انظر : شرح صحيح مسلم للنووي (٥/٢٤ - ٢٥) ، وشرح الإحياء للزبيدي (٢/١٠٥) .

(٢) مناهج الأدلة ، ص ١٧٦ - ١٨٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢١٩ - ٢٢٠) ، وانظر : درء التعارض (٦/٢٥٩ - ٢٦٠) ، وتلبيس الجهمية (٢/٣٧) ، والعلو للذهبي : ص ١٩٤ - ١٩٥ ، والصواعق المرسلة (٤/١٢٩٣ - ١٢٩٤)، واجتماع الجيوش : ص ٢٦٣ - ٢٨١ .

تعالى فوق العالم بائن من خلقه ، وهذا هو معنى علو الله تعالى على خلقه ، ولكن الجهمية المعطلة يعنون بقولهم : « ولا له مكان » أن الله تعالى لا فوق العالم ولا خارج العالم ، وأنه لا فوق العالم إله يعبد ولا رب يدعى ويسأل ، ولا وراء هذا الكون خالق خلق هذا الكون ، ولا عرج بالنبي ﷺ إلى ربه أصلا ، هذا هو مقصود هؤلاء المعطلة [١] .

* * *

(١) نقض المنطق : ٥٠ ، ومجموع الفتاوى (٥٨/٤ - ٥٩) .

الفصل الثالث

حوار حول دعوى الأشاعرة
أن الله يرى بدون إثبات صفة العلو

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عرض أقوال الماتريدية والأشاعرة في الرؤية .

المبحث الثاني : الرد على الماتريدية والأشعرية في مسألة الرؤية .

المبحث الثالث : بعض شبهات الأشعرية والماتريدية والرد عليها .



تمهيد :

اتفقت الأمة الإسلامية السنية من أهل الحديث والآثار وأهل السنة المحضة على أن المؤمنين يرون ربهم بعيون أبصارهم في المحشر ، وكذا في الجنة من غير إحاطة ، ويتنعمون برؤيته ، ولا يضارون فيها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ ، ٢٣] وكما قال الله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] وقد فسر هذا النبي ﷺ بقوله : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئًا أزيدكم ؟ قال : فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل ثم تلا الآية » (١) .

فدل على أن الحسنى هي الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك » (٢) .

وهم يواجهون ربهم عيانًا مواجهة وهو من فوقهم (٣) ، ولا يضامون في رؤية ربهم كما نرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب .

أما الماتريدية والأشعرية (٤) فقد خالفوا ذلك ، وقالوا : إن الله يرى لا في جهة

---

(١) مسلم (١٨١) عن صهيب .

(٢) البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢) عن أبي هريرة .

(٣) انظر : منهاج السنة (٣٤١/٣ - ٣٤٨) ، وبيان تلبيس الجهمية ، ص ٧٧ ، والقصيدة النونية ، ص ٩٥ ، وتوضيح المقاصد ، ص ٤٢٥ - ٤٢٧ ، وشرح الهراس للعقيدة الواسطية (٢٢٩/١ - ٢٣١) ، وحادي الأرواح ، ص ٤٧٦ .

(٤) انظر : الاقتصاد للغزالي ، ص ٤٢ ، والمواقف ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ، والمحصل للرازي ص ٢٧٢ ، وكتاب التوحيد للماتريدي ، ص ٨٥ ، وأصول الدين للبزدوي ، ص ٧٧ .

لا أمام الرائي ولا خلفه ، ولا عن يمينه ولا عن يساره ، ولا فوقه ولا تحته ، فهم وإن تظاهروا بإثبات الرؤية إلا أنهم اشترطوا شروطًا وقيودًا سلبية في مسألة الرؤية حتى جعلوها من قبيل المستحيلات ، وأتوا بعقيدة لا يقرها عقل ولا نقل ولا لغة ولا عرف ولا شرع ، وخالفوا إجماع الفريقين من أهل السنة وأهل البدعة ، فإن النزاع بين أهل السنة وأهل البدعة كان في مسألة الرؤية .

فكان أهل السنة يعتقدون أن المؤمنين يرون ربهم في المحشر وفي الجنة بعيون أبصارهم ، والله تعالى يكون من فوقهم .

وأما الجهمية من المعتزلة (١) وغيرهم فكانوا يعتقدون أن رؤية المؤمنين بعيون أبصارهم محال ؛ لأن الرؤية تقتضي الجهة والمسافة التي لا تكون بعيدة جدًا ولا قريبة جدًا .

ولما كانت هذه الأمور مستحيلة في حق الله تعالى - عندهم - أنكروا الرؤية بالأبصار ، وقالوا : المراد في الرؤية ليس الرؤية البصرية ، بل الرؤية القلبية .

فكانت الأمة منقسمة قسمين : أهل السنة وأهل البدعة ، ولكن لما جاء دور الماتريدية والأشعرية خالفوا أهل السنة وأهل البدعة جميعاً ، وأحدثوا قولًا ثالثًا بين القولين ، فقالوا : إن المؤمنين سيرون ربهم بعيون أبصارهم ، ولكن بدون جهة ولا مسافة ولا مقابلة ولا مدابرة ، ولا فوق ولا تحت ، ولا كذا ولا كذا فحاربهم أهل السنة والمعتزلة جميعاً ، وهأنذا أعرض لبعض أقوالهم في هذا الباب كما سيأتي .

* * *

---

(١) انظر : الملل والنحل (١/٨٨) ، وفتح الباري (١٣/٤٢٦) ، ومختصر الصواعق ، ص ١٤٣ ، ١٥٧ .

المبحث الأول

عرض أقوال الماتريدية والأشعرية في الرؤية

نبدأ في البحث بعون الله بعرض الأقوال لأناس من الماتريدية توضح لنا حقيقة مذهبهم في رؤية الله تعالى مع التعليق عليها بإيجاز ، ثم نجيب عنها بالتفصيل في المبحث الثاني إن شاء الله ، فمن أقوالهم :

١ - قال **أبو منصور الماتريدي** (٣٣٣ هـ) : « فإن قيل كيف يرى [(١)] ؟ قيل : بلا كيف ، إذ الكيفية تكون لذي صورة ، بل يرى بلا وصف قيام وقعود واتكاء وتعلق واتصال وانفصال ومقابلة ومدابرة ، وقصير وطويل ، ونور وظلمة ، وساكن ومتحرك ، ومماس ومباين ، وخارج وداخل ، ولا معنى يأخذه الوهم أو يقدره العقل لتعاليه عن ذلك » .

٢ - وقال **أبو اليسر البزدوي** (٤٩٣ هـ) : « إنه يرى في الآخرة بلا محاذاة ولا كيفية ولا حد » [(٢)] .

قلت : لو قال بلا كيف لنطق بالحق .

٣ - قال **الصابوني الحنفي** (٥٨٠ هـ) : « فكذلك نراه ، ولا يكون لجهة منا » [(٣)] .

قلت : مراده بالجهة الجهات الست : الفوق والتحت ، واليمين والشمال ، والخلف والأمام .

فلما قال : نراه ولكن بدون جهة أحال الرؤية وعطل وخالف السلف ؛ لأن عقيدة السلف أن الله تعالى فوقهم ، وأما رؤية شيء دون جهة فهذا لا يقوله عاقل ، فإنه أمر مستحيل ، لا يقره عقل ولا نقل .

---

(١) كتاب التوحيد للماتريدي ، ٨٥ .

(٢) أصول الدين له ، ص ٧٧ .

(٣) البداية من الكفاية ، ص ٨٠ ، وهو غير الإمام أبي عثمان الصابوني .

٤ - وقال **عمر النسفي الحنفي** (٥٣٧ هـ) وتبعه **التفتازاني الحنفي** (٧٩٢هـ) واللفظ للأول : « فيرى لا في مكان ولا على جهة من مقابلة واتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرائي وبين الله تعالى »[١] .

٥ - وقال **التفتازاني** : « إن المؤمنين في الجنة يرونه منزهًا عن المقابلة والجهة والمكان وخالفهم في ذلك جميع الفرق » .

٦ - وقال **البياضي** : « ولا يكون بينه وبين خلقه مسافة ولا قرب ولا بعد ولا حجاب ولا مقابلة ... ، ولا جهة [٢] ، ووافقتهم الأشعرية حذو القذة بالقذة » [٣] .

* * *

---

(١) شرح العقيدة النسفية وشرحها للتفتازاني ، ص ٧٣ - ٧٤ .

(٢) شرح المقاصد (١٨١/٤) .

(٣) إشارات المرام ، ص ٣٠٢ .

المبحث الثاني

الرد على الأشعرية والماتريدية في مسألة الرؤية

بعد أن استعرضنا أقوال مذهب الماتريدية والأشعرية في شأن رؤية الله عز وجل نقوم الآن بالرد على مذهبهم ، وذلك بعدة ردود ، فأقول وبالله التوفيق :

الرد على الأول :

إن قول من قال إنه يرى بلا جهة مخالف للفطرة والعقل ، وفيما يلي نصوص بعض أئمة السنة في تحقيق أن هؤلاء الماتريدية والأشعرية قالوا : في الرؤية قولًا لا يقره عقل ولا نقل ، بل جعلوا الرؤية من المحالات والممتنعات ، وأنهم في مسألة الرؤية منكرون لعلو الله تعالى أيضًا :

١ - قال **الإمام أبو العز الحنفي** (٧٩٢ هـ) في شرحه للطحاوية : « فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ؟ ومن قال : « يرى لا في جهة فليراجع عقله !! فإما أن يكون مكابرًا لعقله ، أو في عقله شيء ، وإلا فإذا قال : « يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ، ولا فوقه ولا تحته » رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة ، ولهذا ألزم المعتزلة من نفي العلو بالذات بنفي الرؤية ، وقالوا كيف تعقل رؤية بغير وجهة ....، وما ألزمهم المعتزلة هذا الإلزام لما وافقوهم على أن لا داخل العالم ولا خارجه » [1] .

٢ - قال **الإمام ابن القيم** رحمه الله تعالى في الرد على هؤلاء الأشعرية والماتريدية الجامعين بين إثبات الرؤية ، وإنكار العلو ونفي المواجهة :

فسل المعطل هل نراه تحتنا أم عن شمائلنا وعن أيمان
أم خلفنا وأمامنا سبحانه أم هل نرى من فوقنا ببيان

(١) شرح الطحاوية ، ص ١٧٢ - ١٧٣ ، ت : عيون ، ط : دار المؤيد ..

يا قوم ما في الأمر شيء غير ذا ... أو أن رؤيته بلا إمكان
إذ لا رؤية لا في مقابلة من الـ ... ـرائي محال ليس في الإمكان
ومن ادعى شيئًا سوي ذا كان دعـ ... ـواه مكابرة على الأذهان
ولذاك قال محقق [١] منك لأهـ ... ـل الاعتزال مقالة بأمان
ما بيننا خلف وبينكم لـ ... ـدى التحقيق في المعنى فيا إخواني
شدوا بأجمعنا لنحمل حملة ... نذر المجسم [٢] في أذل هوان
إذ قال إن إلهنا حقا يرى ... يوم المعاد كما يرى القمران
ويكنن فوق العرش جل جلاله ... فلذاك نحن وحزبهم خصمان
لكننا سلم وأنتم إذ تساعدنا ... على نفي العلو لربنا الرحمن
لانتصبوا معنا الخلاف فما له ... طعم فنحن وأنتم سلمان
هذا الذي والله مودع كتبهم ... فانظر ترى يا من له عينان [٣]

قلت : للعلامة أحمد بن عيسى ، وللعلامة السعدي ، والدكتور محمد خليل الهراس كلام مهم في شرح هذه الأبيات ، وكشف الأستار عن عقيدة الماتريدية والأشعرية في الرؤية ، وبيان ما فيها من التناقض ، ومخالفة العقل والنقل في آن واحد فراجعه [٤] .

الرد الثاني :

قولهم في الرؤية مخالف لظواهر الكتاب والسنة ، فكل النصوص تدل على الآتي :

١ - إثبات رؤية المؤمنين لربهم بعيون رؤوسهم [٥] .

٢ - إثبات العلو لله على خلقه وفوقيته على عباده .

---

(١) يعني الرازي وأمثاله من أساطين الكلام .

(٢) يعنون أهل السنة .

(٣) القصيدة النونية ، ص ٦٤ - ٦٥ ، ط : القديمة ، وص : ٥٨ - ٦٩ ، ط : الجديدة .

(٤) توضيح المقاصد (٤٢٥/١ - ٤٢٧) وشرحها للهراس (٢٢٩/١ - ٢٣١) ، وتوضيح الكافية للسعدي ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٥) لما جاء في الأحاديث الصحيحة من ذلك قوله ﷺ : « إنكم سترون ربكم عيانًا » . رواه البخاري (٧٤٣٥) .

٣ - إن رؤية المؤمنين لربهم إنما تكون في جهة ، وقد أورد شيخ الإسلام أربعة وجوه قاطعة تدل من خلال حديث واحد فقط من أحاديث الرؤية على أن الرؤية إنما تكون في جهة [١] .

وفي هذا القول يقول شيخ الإسلام رحمه الله : « إن كون الرؤية مستلزمة لأن يكون الله في جهة من الرائي أمر ثبت بالنصوص المتواترة ، ففي الصحيحين وغيرهما الحديث المشهور عن الزهري قال : إن سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هل تضامون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا ، قال : فهل تمارون في رؤية القمر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك » [٢] وذكر الحديث بطوله ، قال أبو سعيد : أشهد لحفظته من رسول الله ﷺ . وهكذا هو في الصحيحين من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد ، قال : قلنا : يا رسول الله هل نرى ربنا ؟ قال : « هل تضارون في رؤية الشمس إذا كان صحواً ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر إذا كان صحواً ، قلنا : لا ، قال : فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤيتهما » [٣] وساق الحديث بطوله .

وفي صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال ناس : يا رسول الله أنرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « فهل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحاب ؟ قالوا : لا ، قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحاب ؟ قالوا : لا ، قال : والذي نفسي بيده لا تضارون في رؤيته إلا كما تضارون في رؤية أحدهما » [٤] . وذكر الحديث بطوله .

فهذا فيه مع إخباره أنهم يرونه إخبارهم أنهم يرونه في جهة منهم من وجوه :

---

(١) من ذلك قوله ﷺ : « فيرفعون رؤوسهم ، فإذا ربهم قد أشرف عليهم .. » . رواه ابن ماجه (١٤٠) وغيره عن جابر .

(٢) البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٣) عن أبي هريرة .

(٣) البخاري (٤٥٨١) ومسلم (١٨٣) عن أبي سعيد .

(٤) مسلم (١٨٣) عن أبي هريرة .

أحدها : أن الرؤية في لغتهم لا تعرف إلا لرؤية ما يكون بجهة ، فأما رؤية ما ليس في الجهة فهذا لم يكونوا يتصورونه فضلًا عن أن يكون اللفظ يدل عليه ، كما قد اعترف هو بذلك فيما تقدم ، فإنك لست تجد أحدًا من الناس يتصور وجود موجود في غير جهة ، فضلًا عن أن يتصور أنه يرى ، فضلًا عن أن يكون اسم الرؤية المشهور في اللغات كلها يدل على هذه الرؤية الخاصة .

الوجه الثاني :

أنه قال : « فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا ، وكما ترون القمر صحوًا فشبه لهم رؤيته برؤية الشمس والقمر ، وليس ذلك تشبيهًا للمرئي بالمرئي ومن المعلوم أنه إذا كانت رؤيته مثل رؤية الشمس والقمر وجب أن يرى في جهة من الرائي ، كما أن رؤية الشمس والقمر كذلك ، فإنه لو لم يكن كذلك لأخبرهم برؤية مطلقة نتأولها على ما يتأول من يقول بالرؤية في غير جهة ، أما بعد أن يستفسرهم عن رؤية الشمس صحوًا ، ورؤية البدر صحوًا ، ويقول : إنكم ترون ربكم كذلك ، فهذا لا يمكن أن يتأول على الرؤية التي يزعمونها ، فإن هذا اللفظ لا يحتملها لا حقيقة ولا مجازًا .

الوجه الثالث :

أنه قال : « هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ وهل تضارون في القمر ليس دونه سحاب » فشبه رؤيته برؤية أظهر المرئيات إذ لم يكن ثم حجاب منفصل عن الرائي يحول بينه وبين العباد حجاب منفصل عنهم ، إذ الحجاب لا يكون إلا لجسم ، ولما يكون في جهة ، وهم يقولون : الحجاب عدم خلق الإدراك في العين ، والنبي ﷺ مثل رؤيته برؤية هذين النورين العظيمين ، إذا لم يكن دونهما حجاب .

الوجه الرابع :

أنه أخبر أنهم لا يضارون في رؤيته ، وفي حديث آخر « لا يضامون » ونفي الضير والضيم إنما يكون لإمكان لحوقه للرائي ، ومعلوم إنما يسمونه رؤية ، وهو رؤية

ما ليس بجهة من الرائي لا فوقه ولا شيء من جهاته لا يتصور فيها ضير ولا ضيم حتى ينفي ذلك ، بخلاف رؤية ما يواجه الرائي ، ويكون فوقه فإنه قد يلحقه فيه ضيم وضير ، إما بالازدحام عليه ، أو كلال البصر لخفائه كالهلال ، وإما لجلائه كالشمس والقمر [١] .

الرد الثالث :

إن قولهم مخالف لما عليه السلف ، وأئمة السنة من الأئمة الأربعة وغيرهم ، بل مخالف لما عليه عقلاء بني آدم من مثبتة الصفات ونفاتها .

١ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « إن كون الله يرى بجهة من الرائي ثبت بإجماع السلف والأئمة ، مثل ما روى اللالكائي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « إن من تمام النعمة دخول الجنة والنظر إلى الله في جنته » [٢] .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في مسجد الكوفة ، وبدأ باليمين قبل الحديث فقال : « والله ما منكم من إنسان إلا إن ربه سيخلو به يوم القيامة ، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر قال : فيقول : ما غرك بي ياابن آدم ؟ ثلاث مرات ، ماذا أجبت المرسلين ؟ ثلاثًا ، كيف عملت فيما علمت ؟ » [٣]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه كان يعلم الناس سنتهم ودينهم ، قال : فشخصت أبصارهم أو قال : حرفوها عنه ، قال : « فما حرف أبصاركم عني ؟ قالوا : الهلال أيها الأمير ، قال : ذاك أشخص أبصاركم عني ، قال : فيكف إذا رأيتم الله جهرة » [٤] .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : « يحبس الناس يوم القيامة في صعيد واحد فينادى : أيها المتقون ، فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب منهم

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٤٠٩/٢ - ٤١١) .

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ؛ ٤٩٦ .

(٣) المرجع السابق (٤٩٦/٢ - ٤٩٧) .

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، (٤٩٨/٢) وعبد الله بن أحمد في السنة ، ١٥٣ .

ولا يستتر ، قلت : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان ، وأخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة » [١] [٢] .

وقال شيخ الإسلام : « والجواب الثاني : أن الذين قالوا : (إن الله يرى بلا مقابلة) هم الذين قالوا : (إن الله فوق العالم) فلما كانوا مثبتين للرؤية نافين للعلو احتاجوا إلى الجمع بين هاتين المسألتين .. ، قالوا ... ، يمتنع أن يكون في جهة ؛ لأنه لا يكون في الجهة إلا جسم ، فيمتنع أن يكون مقابلًا للرائي ، لأن المقابلة لا تكون إلا بين جسمين ، ولا ريب أن جمهور العقلاء من مثبتي الرؤية [٣] ونفاتها [٤] يقولون : إن هذا القول [٥] معلوم الفساد بالضرورة .

ولهذا يذكر الرازي أن جميع فرق الأمة تخالفهم في ذلك ... » [٦] .

٣ - وقال شيخ الإسلام مبطلاً قول الماتريدية والأشعرية الذين أقروا بالرؤية واعترفوا بها ، ولكنهم نفوا العلو لله تعالى ، ومبينًا أن قول السلف في الجمع بين الرؤية والعلو حق لا غير ... : « والصواب هو ما عليه السلف وأئمة السنة ، وهو قول الأربعة وجمهور كبار أصحابهم ، والنصوص المأثورة في ذلك عن الأئمة المذكورين في غير هذا الموضع ، والبيان التام هو ما بينه الرسول ﷺ ، فإنه أعلم الخلق بالحق ، وأنصح الخلق للخلق ، وأفصح الخلق في بيان الحق ، فما بينه عن أسمائه وصفاته وعلوه ورؤيته هو الغاية في هذا الباب ، والله الموفق للصواب » [٧] .

٤ - وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في إبطال قول الرازي في الجمع بين إثبات الرؤية وبين نفي العلو لله تعالى ، وتحقيق أن قول هؤلاء الأشعرية في الرؤية

---

(١) المرجع السابق ، (٢/٤٩٨ - ٤٩٩) .
(٢) نقض التأسيس (٢/٤١٥) .
(٣) أي أهل السنة والحديث .
(٤) أي الجهمية والمعتزلة .
(٥) أي القول بالرؤية مع نفي الجهة والمسافة والمقابلة والعلو .
(٦) منهاج السنة (٣/٣٤٢ - ٣٤٣) .
(٧) منهاج السنة (٣/٣٥١ - ٣٥٢) .

مخالف لقول أهل السنة ، وقول أهل البدع ، ومخالف للعقل والنقل ، وفاسد بالبداهة : « يقرر ذلك الوجه الثالث عشر : وهو أنك وسائر الصفاتية [١] تثبتون رؤية الرب بالأبصار كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ ثم إنك [٢] وطائفة معك [٣] تقولون : إنه يرى لا في جهة ، ولا مقابلًا للرائي ولا فوقه ولا تحته ، ولا في شيء من جهاته الست ، وجمهور عقلاء بني آدم من مثبتة الصفات ونفاتها يقولون : إن فساد هذا معلوم بالبديهة والحس » [٤] .

الرد الرابع :

يقال لمن أثبت الرؤية بلا جهة : ما مرادك بالجهة ؟ فإن أراد بالجهة أن الله تعالى ليس في جهة من الجهات ، ولا فوق ولا تحت ، ولا يمين ولا شمال ، ولا خلف ولا أمام فهذا باطل ؛ لأن هذه صفة معدوم ، بل صفة ممتنع ، بل نفي لوجوده . سبحانه وتعالى .

وإن أراد أنه ليس بمحصور في شيء موجود فهو حق ، فالله يراه المؤمنون بالأبصار من غير أن يحيطوا به .

قال ابن أبي العز : « أتريد بالجهة أمرًا وجوديًا ؟ أو أمرًا عدميًا ؟ فإن أراد بها أمرًا وجوديًا كان التقرير : « كل من ليس في شيء موجود لا يرى » وهذه المقدمة ممنوعة ، ولا دليل على إثباتها بل هي باطلة ، فإن سطح العالم يمكن أن يرى ، وليس العالم في عالم آخر ، وإن أردت بالجهة أمرًا عدميًا كانت المقدمة الثانية ممنوعة ، فلا نسلم أنه ليس في جهة بهذا الاعتبار [٥] .

الرد الخامس :

أن من زعم أن الله يرى بلا جهة فقد فسر الرؤية على خلاف ظاهر النصوص :

---

(١) وهم أهل السنة أصحاب الحديث ، والكلابية والماتريدية والأشعرية .

(٢) الخطاب للرازي .

(٣) وهم الأشعرية والماتريدية .

(٤) بيان تلبيس الجهمية (٢/٧٧) .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٧٢ ، ت : عيون ، ط : دار المؤيد .

١ - قال **ابن حزم** في الرد على من فسر الرؤية على خلاف ظاهرها : « والثاني تواتر الأخبار عن النبي ﷺ ببيان أن المراد بالنظر هو الرؤية لا ما تأوله المتأولون »[(١)] .

٢ - قال **الإمام الدارمي** : « فيقال لك أيها المريسي : أقررت بالحديث وثبته عن رسول الله ﷺ فأخذ الحديث بحلقك ، لما أن رسول الله ﷺ قد قارن التفسير بالحديث ، فأوضحه ولخصه بجمعها جميعاً في إسناد واحد ، حتى لم يدع لمتأول فيه مقالًا ، وأخبر أنه رؤية العيان نصًا كما توهم هؤلاء الذين تسميهم بجهلك مشبهة ، فالتفسير فيه مأثور مع الحديث ، وأنت تفسره بخلاف ما فسره الرسول من غير أثر تأثره عن من هو أعلم منك ، فأي شقي من الأشقياء ، وأي غوي من الأغوياء يترك تفسير رسول الله ﷺ المقرون بحديثه المعقول عند العلماء الذي يصدقه ناطق الكتاب ؟ ثم يقبل تفسيرك المحال الذي لا تأثره إلا عمن هو أجهل منك وأضل ؟ أليس قد أقررت أن النبي ﷺ قال : « ترون ربكم لا تضامون فيه ، كما لا تضامون في رؤية الشمس والقمر » وإنما قال النبي ﷺ : لا تشكون يوم القيامة في رؤيته ، وهذا تفسير مع ما فيه من معاندة الرسول ﷺ فهو محال خارج عن المعقول ؛ لأن الشك في ربوبية الله زائل عن المؤمن والكافر يوم القيامة ، فكل مؤمن وكافر يومئذ يعلم أنه ربهم لا يعتريهم في ذلك ، فيقبل الله ذلك من المؤمنين ولا يقبله من الكافرين ، ولا يعذرهم بمعرفتهم ويقينهم به في ذلك اليوم ، فما فضل المؤمن والكافر يوم القيامة عندك في معرفة الرب ؟ إذ مؤمنهم وكافرهم لا يعتريه في ربوبيته شك ، أو ما علمت أيها المريسي أنه من مات ولم يعرف قبل موته أن الله ربه في حياته حتى يعرفه بعد مماته ، فإنه يموت كافرًا ، ومصيره إلى النار أبدًا ، ولن ينفعه الإيمان بالله يوم القيامة بما يرى من آياته إن لم يكن آمن بها من قبل .

فمن موضع بشرى رسول الله ﷺ المؤمنين برؤية ربهم يوم القيامة ؟ إذ كل مؤمن وكافر في الرؤية يومئذ سواء عندك ، إذ كل لا يعتريه فيه شك ولا ريبة .

أو لم تسمع أيها المريسي قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/٣) .

صَٰلِحًا ﴾ [الأنعام : ٣٠] فقد أخبر الله عن الكفار أنهم يومئذ موقنون ، فكيف المؤمنون من أصحاب رسول الله ﷺ الذين سألوه : هل نرى ربنا ؟ وقد علموا قبل أن يسألوه أن الله ربهم لا يعتريهم في ذلك شك ولا ريبة . أو لم تسمع أيها المريسي ما قال الله ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] يقال في تفسيره : فكيف ينفعه يوم القيامة فيستحق به النظر إلى الله ؟ فاعقل أيها المريسي ما يجلب عليك كلامك من الحجج الآخذة بحلقك » [١] .

الحاصل : إن قولهم هذا مخالف للعقل والنقل والفطرة جميعاً ، فلا هم قالوا بمذهب أهل السنة ، ولا قالوا بمذهب أهل البدعة ، بل أحدثوا قولاً ثالثاً خارجًا عن القولين ، لأن الرؤية بالأبصار دون مسافة ودون مقابلة ، ودون جهة محال وإنما ذلك يتصور في الرؤية القلبية دون الرؤية البصرية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن عقيدتهم في الرؤية متضمنة لإنكار العلو لله تعالى ؛ لأنهم لما تابعوا الفلاسفة ثم المعتزلة في إنكار العلو لله على خلقه وفوقيته على عباده ، قالوا : إن الله تعالى لا في جهة ولا فوق العالم ، ولا تحت العالم ، ولا داخل العالم ، ولا خارج العالم .

فحاولوا التوفيق بين المسألتين : مسألة الرؤية ومسألة إنكار العلو ، فآمنوا بالرؤية ظاهرًا ، وبقوا على نفي العلو لله تعالى ، فقالوا : إن المؤمنين سيرون ربهم بعيون أبصارهم ، ولكن دون مسافة ولا مقابلة ولا جهة ولا فوق ولا تحت ، ولا اتصال ولا انفصال ، ولا الدخول ولا الخروج ، إلا آخر هذه القيود التي جعلوا الرؤية بها من المحالات ، فخالفوا بذلك العقل والنقل وإجماع الفريقين من أهل السنة وأهل البدع ، وأحدثوا قولًا ثالثًا بين القولين للأمة ، كصنيعهم في الكلام النفسي .

فإن أهل السنة كانوا يعتقدون أن الله تعالى يتكلم بالكلام اللفظي المسموع بحرف وصوت ، وهذا القرآن كلام الله وهو غير مخلوط ، وكان الجهمية من المعتزلة وغيرهم يعتقدون أن الله تعالى له كلام أي الكلام اللفظي المخلوق ، بمعنى أن الله تعالى خلق الكلام لا أنه تكلم به ، وهذا القرآن العربي كلام الله ، بمعنى أن

---

(١) الرد على المريسي ، ص ٥٦ - ٥٧ .

الله خلقه لا أن الله تعالى تكلم به ، فجاءت الكلابية ، ومن اتبعهم من الماتريدية والأشعرية ، فخالفوا أهل السنة وأهل البدع جميعاً ، وأحدثوا قولًا ثالثًا بين القولين ، فابتدعوا بدعة القول بالكلام النفسي ، فقالوا : إن كلام الله تعالى كلام نفسي ليس بحرف ولا صوت ، وهو شيء واحد أزلي غير مسموع ، وأن هذا القرآن العربي اللفظي مخلوق ، وليس هو كلام الله ، وإنما أطلق عليه إنه كلام الله مجازًا ؛ لأنه دال على كلام الله النفسي ، فهكذا فعلوا في الرؤية حيث أحدثوا قولًا ثالثًا بين القولين للأمة .

والخلاصة : أن عقيدة الماتريدية والأشعرية في الرؤية فيها حق وباطل ، أما الحق فهو أنهم يتظاهرون بالإيمان بالرؤية والإقرار بها ، وهذا من حسناتهم ، وبه فارقوا المعتزلة في هذه المسألة ، وأما الباطل فهو أمران :

١ - إنكارهم لعلو الله تعالى على عرشه وفوقيته على عبده ، لأنهم يقولون :

إن الله لا داخل العالم ولا خارج العالم ، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه ، ولا فوق العالم ولا تحت العالم ، ولا أمام العالم ولا خلفه ، ولا يمين العالم ولا شمال العالم ، ولا في جهة من الجهات الست ، وهذا من أعظم الفساد الذي يتضمنه قوله ، ومن أعظم الإلحاد في صفات الله تعالى .

٢ - جمعهم بين إثبات الرؤية وإنكار العلو لله تعالى ، وإنكار المواجهة والعيان إلى غير ذلك من القيود والشروط السلبية التي جعلوا الرؤية بسببها من المحالات الممتنعات ، فعقيدتهم في الرؤية هذه عقيدة لا يقرها عقل ولا شرع ولا لغة ولا عرف ولا إجماع أهل السنة وأهل البدعة ، بل هو قول ثالث بين القولين لأهل السنة ، وأهل البدعة .

ولما كان قول الماتريدية والأشعرية في إثبات الرؤية على نفي العلو لله تعالى وإنكار المواجهة أبعد عن العقل ، وكان قولًا متناقضًا ، حكم عليهم المعتزلة والرافضة بأن قولهم هذا عين السفسطة [١] .

---

(١) انظر : منهاج الكرامة لابن المطهر الحلي الرافضي ص ١٨ ، المطبوع في آخر منهاج السنة ، ط باكستان .

ولكن أهل الحديث وعلى رأسهم شيخ الإسلام أنصفوهم ، فقالوا : قولكم أقرب إلى الإسلام ؛ لأنه متضمن للحق والباطل : إثبات الرؤية وإنكار العلو ، وأما قول المعتزلة فأبعد عن الإسلام ؛ لأنه متضمن لإنكار الرؤية . وإنكار العلو لله تعالى .

تنبيه :

مما يجب أن ينتبه له طالب الحق والإنصاف أن قول هؤلاء الأشعرية والماتريدية في مسألة الرؤية ، وجمعهم بين الرؤية وبين إنكار العلو لله تعالى أبعد عن العقل في بداهة العقول ، وأنه قول متناقض متهافت ، وأنه قول مخالف لجميع الفرق من أهل السنة وأهل البدع كما عرفت ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن قول هؤلاء الماتريدية والأشعرية في الرؤية خير وأفضل من قول المعتزلة ؛ لأن المعتزلة قد أنكروا الرؤية والعلو لله تعالى جميعاً ، وكان إثبات علو الله تعالى على خلقه أظهر في العقول والفطر من إثبات الرؤية لله تعالى ، وإنكار الرؤية أخف شرًا من إنكار العلو لله تعالى .

* * *

المبحث الثالث

بعض شبهات الأشعرية والماتريدية والرد عليها

الشبهة الأولى : تفسيرهم للرؤية بالعلم :

لما كان قول الماتريدية والأشعرية في مسألة الرؤية أبعد عن النقل والعقل واللغة في إثبات الرؤية وإنكار العلو والمواجهة ، اضطر كبارهم إلى أن فسروا الرؤية بنوع من العلم والإدراك والانكشاف الذي لا حاجة فيه إلى المواجهة والمقابلة بين الرائي والمرئي ، وأن هذه الرؤية مختلفة بالماهية عن رؤية سائر المبصرات [١] ولأجل ذلك جوزوا رؤية أعمى في الصين بقة [٢] في الأندلس [٣] . قلت : لا شك أن رؤية أعمى وهو في الصين بقة وهي في الأندلس ليست رؤية لغوية معرفية معرفة عند الناس لوجهين :

١ - أن الأعمى لا بصر له ، والمطلوب رؤية بصرية بالعين .

٢ - أن هذه ليست رؤية بصرية بل قلبية ، لبعد البقة عن ذلك الأعمى ؛ لأن أحدهما في الشرق ، والآخر في الغرب ، فليست هذه الرؤية إلا نوعًا من العلم القلبي والإدراك القلبي ، وهو أن يعلم ذلك الأعمى أن هناك بقة في الأندلس لا أن يرى ذلك الأعمى في الصين ببصره تلك البقة في الأندلس وهذا كله باعترافهم ، فقد اعترفوا أن رؤية ذلك الأعمى وهو في الصين للبقة التي هي في الأندلس ليست رؤية بصرية ؛ لأنه لا معنى يكون تلك الرؤية بحاسة البصر [٤] .

---

(١) انظر : شرح المواقف للجرجاني (١٣٩/٨) ، وشرح المقاصد (١٩٧/٤) ، وحاشية الكستلي على شرح العقائد ص ١٠٨ ، وحاشية أحمد الجندي على شرح العقائد النسفية ص ١٤١ .

(٢) هي البعوضة ، ودويبة مفرطحة حمراء منتنة ، انظر : القاموس (١١٢٢) .

(٣) انظر : حاشية الكستلي على شرح العقائد النسفية ص ١٠٨ ، وحاشية البهشتي على شرح العقائد النسفية ص ٧٣ .

(٤) انظر : حاشية الكستلي على شرح العقائد النسفية ، ص ١٠٨ .

ولذلك اضطر بعضهم إلى أن اعترف بأن هذه الرؤية قلبية ، وليست رؤية بصرية ، وكان النزاع في الرؤية البصرية ، والمطلوب إنما هي الرؤية البصرية دون الرؤية القلبية التي هي الانكشاف والعلم ، فقال : إن أريد بالعلم بها انكشافها انكشاف المشاهدات ، فهو الرؤية بعينها ، وإن أريد نوع آخر فلابد عن تصويره وأنت خبير بأن المراد الانكشاف التام بالعقل لا بالبصر والرؤية ، هو الثاني لا الأول (١) .

والنبي ﷺ فسر كلامه فقد قال ﷺ : « إنكم سترون ربكم عياناً » (٢) .

قلت : لما كان قول الماتريدية والأشعرية في تفسير الرؤية تفسيراً باطلاً لا يقره لغة ولا شرع ولا اصطلاح ، وكان قولهم مخالفًا لقول أهل السنة من أهل الحديث وقول أهل البدعة من المعتزلة لأنهم :

أولاً : جمعوا بين إثبات الرؤية وإنكار العلو لله تعالى ، وإنكار المواجهة والمقابلة .

ثانياً : فسروا الرؤية بنوع من العلم والانكشاف .

وثالثاً : جوزوا رؤية الأعمى الذي هو في الصين للبقة التي هي في الأندلس .

ورابعاً : اعترفوا مضطرين على رغم أنوفهم أن هذه رؤية قلبية ونوع من العلم بالقلب لا رؤية بصرية ؛ لأن الأعمى لا يبصر بعين الرأس لعدم بصره .

وخامساً : لما اعترفوا بأن رؤية المؤمنين لربهم مختلفة بالماهية عن رؤية سائر المبصرات ، اضطروا على رغم أنوفهم للاعتراف بتسليم اعتراض المعتزلة ، فإن المعتزلة قالوا لهم : كان نزاعنا في الرؤية بالحاسة ، وفي الرؤية البصرية ، ولم يكن نزاعنا في الرؤية القلبية التي هي نوع من العلم والانكشاف والإدراك ، والتي ذكرتموها ليست رؤية بصرية ، وإنما هي رؤية قلبية ، ونوع من العلم (٣) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٣ .

(٢) صحيح البخاري (٤/٢٠٠) .

(٣) انظر : حاشية الخيالي على شرح العقائد النسفية ، ص ١٣ ، وشرح المقاصد للتفتازاني (٤/ ١٩٧) ، وحاشية حسن شلبي على شرح المواقف للجرجاني (١٣٩/٨) ، وحاشية أحمد الجندي على شرح العقائد النسفية ، ص ١٤١ ، وحاشية السيكوتي على شرح العقائد النسفية مع جامع التقارير على هامش تلك الحاشية ، ص ٢٨٤ .

وسادسًا : أنه قد اعترف بعض حذاقهم بأن الخلاف بينهم وبين المعتزلة في الرؤية لفظي [١] .

الشبهة الثانية : أن الرؤية قد تكون مدابرة :

وفي هذه الشبهة يذهب بعضهم إلى أن الرؤية لا تقتضي المواجهة ، فإن الرؤية قد تكون بالمدابرة أيضًا ، واستدلوا بحديث : « فإني أراكم من وراء ظهري » فثبت أن الرؤية تكون بالمدابرة أيضًا [٢] .

والجواب أن نقول : لا شك أن النبي ﷺ حيث ائتموا به من وراء ظهره وهذه معجزة له ﷺ ، وهذه الرؤية كانت معقولة ؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا خلفه فنبههم النبي ﷺ على أنني أراكم من وراء ظهري كما أراكم بالمواجهة .

ولكن هل يعقل أن المؤمنين يرون ربهم من أدبارهم ؟؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى !!!!

بل الحق الذي لا شبهة فيه - وهو المعقول والمنقول - أن المؤمنين سيرون ربهم بعيون رؤوسهم رؤية حسية مواجهة عيانًا ، وهو سبحانه وتعالى يكون من فوقهم ، فإن أحاديث الرؤية نصوص صريحة في هذا المطلوب لوجوه :

الأول : أن النبي ﷺ قال : « إنكم سترون ربكم عيانًا » [٣] ولم يقل استدبارًا .

الثاني : أن النبي ﷺ قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته » [٤] ولا شك أنه ليس في تشبيه المرئي بالمرئي معاذ الله من ذلك ، ولكن فيه تحقيق أنكم كما ترون هذا القمر عيانًا مواجهة وهو فوقكم كذلك ترون ربكم بسهولة عيانًا مواجهة وهو فوقكم .

---

(١) انظر : حاشية أحمد الجندي الملقب بالمحقق على شرح التفتازاني على العقائد النسفية ص ١٤١ .

(٢) انظر : المسايرة مع المسامرة ، ص ٤٢ .

(٣) رواه البخاري عن جرير ، ص ٧٤٣٥ .

(٤) رواه البخاري (٢٠٣/١ ، ٢٠٩ ، ١٨٣٦/٤ ، ٢٧٠٣/٦) .

هذه أظهر شبهاتهم في هذه المسألة مع الجواب ، وأسأل الله تعالى الهداية إلى الصواب والرشد والسداد والاستقامة على الكتاب والسنة وطريقة السلف الصالح .

يتبين لنا أن مذهب الماتريدية والأشعرية في الرؤية مذهب فاسد لا دليل عليه من الكتاب والسنة ، مناقض للعقل والفطرة ، وأنه قول محدث مبتدع .

* * *



الفصل الرابع

حوار حول دعوى الأشاعرة أن الله يتكلم بكلام نفسي غير حقيقي

وفيه مبحثان :

١ - الرد على الأشاعرة والماتريدية في قولهم بالكلام النفسي .

٢ - نقض حجج وشبهات من قال بالكلام النفسي .



المبحث الأول

الرد على الأشعرية والماتريدية في قولهم بالكلام النفسي

اعلم أخي المسلم أن القول بالكلام النفسي إحدى حماقات أهل الكلام ، وهو قول لا يقره عقل ولا نقل ، ولا لغة ولا عرف ، ولا إجماع .

وفيما يلي نذكر تفصيل هذا الإجمال في جملة من وجوه الرد على الكلام النفسي :

الوجه الأول : دليل إجماعي :

لقد أجمع بنو آدم جميعاً على أن الكلام هو اللفظ الدال على المعنى المفيد ، وهو حروف وأصوات ، وأما أن يكون الكلام شيئًا نفسيًا لا حرف ولا صوت ، ويكون معنى واحدًا ، ولا يقبل التجزؤ ، ولا يكون فيه الأمر ولا النهي ولا الإخبار ولا الاستخبار فهذا النوع من الكلام لم يعرفه أحد من بني آدم .

وأول من عرف عنه بالقول ببدعة الكلام النفسي ، إنما هو ابن كلاب المتوفى سنة ٢٤٠ هـ (١) .

وإذا ثبت هذا وتقرر فليعلم المسلم طالب الحق والإنصاف أن الحق هو أن الكلام هو اللفظ الدال على معنى مفيد بحرف وصوت ، وأن ما يدعيه أهل الكلام من بدعة الكلام النفسي خروج على إجماع بني آدم (٢) .

الوجه الثاني :

دليل كون القول بالكلام النفسي بدعة ؛ لأنه إذا تقرر مما سبق أن أول من ابتدع

---

(١) انظر : نهاية الإقدام ، الشهرستاني ، ص ٣١٣ .

(٢) الماتريدية ، لشمس الدين الأفغاني (٨٣/٣ - ٩٥) .

بدعة القول بالكلام النفسي إنما هو ابن كلاب المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، ولم يعرفه قبله أحد ، دل هذا دلالة قاطعة لا تحتمل النقيض أن القول بالكلام النفسي بدعة في صميم الإسلام ، وكفى بها ضلالًا وإثمًا مبينًا .

وإذا تقرر هذا وثبت أن القول بالكلام النفسي بدعة ، فلابد أن يكون مردودًا على صاحبه غير مقبول منه لكونه بدعة وضلالة ، فإن النبي ﷺ قال : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » [١] .

وقال ﷺ : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد » [٢] .

وقال ﷺ : « كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار » [٣] .

وقد اعترف بكون القول بالكلام النفسي بدعة الشهرستاني أيضًا [٤] .

الوجه الثالث :

أن القول ببدعة الكلام النفسي تحريف للدين وإفساد للعقيدة الإسلامية ، وذلك لأنه قد سبق أن بدعة الكلام النفسي لا يقرها نقل ولا عقل ، ولا لغة ولا عرف ولا اصطلاح ، ولا عرف بني آدم .

وأن الكلام المتعارف عليه المفهوم عند الناس في التخاطب والمتبادر إلى أذهانهم إنما هو اللفظ الدال على المعنى المفهوم إخبارًا أو إنشاءً بحرف وصوت كما سبق أيضًا .

ومعلوم أن الله تعالى إنما خاطب عباده بلغات يعرفونها ومصطلحات يفهمونها ، ليعقلوا عن الله تعالى مراده ، ويصح بذلك التكليف والأمر والنهي ؛ لأن بناء الشرائع على كلام الله تعالى المعروف عند بني آدم من المكلفين ، فقد قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم : ٤] .

---

(١) البخاري (٣٠١/٥) ومسلم (١٣٤٣/٣) .

(٢) مسلم (١٣٤٣/٣) ، ورواه البخاري تعليقًا (٣١٧/١٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب السنة ، باب لزوم السنة ، وابن ماجه في سننه ، وصححه الألباني كما في صحيح ابن ماجه .

(٤) انظر : نهاية الإقدام ، ص ٣١٣ .

وإذا ثبت هذا فحمل تلك النصوص التي فيها كلم الله وتكلم ، وقال ويقول ونادى وينادي ، وأمر ونهى ونحوها على الكلام النفسي الذي لا يعرفه بنو آدم في خطابهم ، ولا يقبله عقل ولا نقل ، ولا لغة ولا عرف ، ليس إلا تحريفًا وتقولًا على الله تعالى .

إذ لا شك أن القول بالكلام النفسي مصطلح جديد مخترع بعد عهد التنزيل وبعد عهد العرب الفصحاء بدهور ، وحمل نصوص الكتاب والسنة على المصطلحات الكلامية الصوفية المستحدثة بعد ذلك بأزمنة متطاولة تحريف وإبطال حتى باعتراف هؤلاء المتكلمين .

فقد قال الكوثري (١٣٧١ هـ) : « أين التجليات التي اصطلح عليها الاتحادية من تخاطب العرب وتفاهم السلف والخلف بلغة اللسان العربي المبين ؟ حتى يكون حمل النصوص والآثار على التجليات المصطلح عليها فيما بعد عهد التنزيل بدهور استعمالًا لها في حقائقها ؟!! ومن زعم ذلك فقد زاغ عن منهج الكتاب والسنة ، وتنكب سبيل السلف الصالح ومسلك أئمة أصول الدين ، ونابذ لغة التخاطب وهجر طريقة النقد في الجرح والتعديل والتقويم والتعليل ... » [١] .

قلت : إن حمل نصوص الكتاب والسنة الواردة في صفة كلام الله تعالى مع تلك الكثرة الكاثرة وتنوعها وتواترها وحملها على الكلام النفسي المبتدع ليس إلا استعمالًا في غير حقيقة الكلام ، بل من فعل ذلك فقد زاغ عن منهج الكتاب والسنة ، وتنكب سبيل السلف الصالح ونابذ لغة التخاطب ، وهجر طريقة النقد في الجرح والتعديل والتقويم والتعليل ، فدل على أن القول ببدعة الكلام النفسي تحريف لنصوص الكتاب والسنة ، وتحريف للعقيدة الإسلامية ، وتعطيل لصفة عظيمة من صفات الله تعالى .

الوجه الرابع :

كون القول ببدعة الكلام النفسي قولًا ثالثًا خارجًا عن القولين لأهل السنة وأهل البدعة .

---

(١) تعليقات الكوثري على الأسماء والصفات ، للبيهقي ، ص ٤٥٥ .

لما نبغ ابن كلاب ابتدع بدعة أخرى ، وقولًا ثالثًا خرق به إجماع الفريقين من أهل السنة وأهل البدع جميعاً ، فرد عليه أهل السنة وأهل البدعة جميعاً ، فكلهم رموه عن قوس واحدة ، وبينوا زيفه وأنكروا عليه ؛ لأن القول ببدعة الكلام النفسي كان قولًا ثالثًا بين القولين السابقين ، وخارقًا لإجماع الفريقين ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فاستمع إليه : « وفي الجملة حيث ذكر الله تعالى في كتابه عن أحد من الخلق من الأنبياء أو أتباعهم أو مكذبيهم أنهم قالوا ويقولون ، وذلك قولهم وأمثال ذلك ، فإنما يعني به المعنى مع اللفظ ، فهذا اللفظ وما تصرف منه من فعل ماض ومضارع وأمر ومصدر واسم فاعل عن لفظ القول والكلام ونحوهما ، إنما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب ، إذا كان لفظًا ومعنى وكذلك أنواعه ، كالتصديق والتكذيب والأمر والنهي وغير ذلك ، وهما مما لا يمكن أحدٌ جحده ، فإنه أكثر من أن يحصى .

ولم يكن في مسمى « الكلام » نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وتابعيهم لا من أهل السنة ولا من أهل البدعة ، بل أول من عرف في الإسلام أنه جعل مسمى الكلام المعنى فقط هو عبد الله بن سعيد بن كلاب وهو متأخر – في زمن محنة أحمد بن حنبل – وقد أنكر عليه علماء السنة ، وعلماء البدعة ، فيمتنع أن يكون الكلام الذي هو أظهر صفات بني آدم كما قال الله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٣] ولفظه لا تحصى وجوهه كثرة – لم يعرفه أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم [١] – حتى جاء من قال فيه قولاً لم يسبقه إليه أحد من المسلمين ، ولا غيرهم ... » [٢] .

وقال رحمه الله أيضًا : « ... وحدث مع هذا من يقول بقول ابن كلاب إن كلام الله معنى واحد قائم بنفس المتكلم ... ، وجمهور الناس من أهل السنة والمعتزلة وغيرهم أنكروا ذلك ، وقالوا إن فساد هذا معلوم بصريح العقل ... » [٣] .

(١) هذه الجملة في محل النصب خبر « يكون » في قوله « فيمتنع أن يكون الكلام الذي .. » .

(٢) كتاب الإيمان ، ص ١٢٨ ، وضمن مجموع الفتاوى (١٣٤/٧) .

(٣) درء التعارض (٢٦٧/١) ، و(١١٠/٢) ، ومجموع الفتاوى (٦٤/٦) .

وقال رحمه الله أيضًا : « ... قول ابن كلاب إن كلام الله معنى واحد قائم بنفس الله تعالى ... ، وجمهور الناس من أهل السنة وأهل البدعة يقولون : إن فساد هذا القول معلوم بالاضطرار .. » (١) .

وقد اعترف الشهرستاني أن الأشعري ابتدع قولًا ثالثًا بعد قول أهل السنة والمعتزلة (٢) .

والحاصل : أن بدعة القول بالكلام النفسي مع كونها بدعة ضلالة قول ثالث بين قولين لأهل السنة وأهل البدع ، وكفى بذلك بطلانًا وضلالاً ، وبغيًا وبهتانًا (٣) .

الوجه الخامس : دليل لغوي واصطلاحي وعرفي :

وهو أنه قد تقدم في نصوص أهل العلم أن الكلام في جميع لغات بني آدم عربهم وعجمهم ، ومصطلحهم وألسنتهم وعرفهم هو اللفظ الدال على معنى مفهوم إخبارًا كان أو إنشاءً ، وهذه حقيقة واقعة لا تحتمل النقيض .

فهذا هو معنى الكلام في اللغة والاصطلاح ، وليس له معنى آخر في لغات الناس واصطلاحهم .

ولا شك أن الله تعالى قد خاطب عباده بما يعرفون ويفهمون ، حيث قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ [إبراهيم : ٤] ومن مقتضى البيان أن يكون بلسان القوم ، ولو لم يكن بلسان القوم لما وصف بالبيان ، ولما صح التكليف ولا الأمر به ، ولكان قدحًا في حكمة رب العالمين بأن خاطب عباده بما لا يفهمونه ، وهذا من أبطل الباطل .

وإذا تقرر هذا فاعلم أيها المسلم أن حمل نصوص الشرع في كلام الله تعالى على الكلام النفسي ليس إلا إبطالاً للغات بني آدم واصطلاحهم وعرفهم ، وتكليفًا

(١) درء التعارض (٢/١١٠) .
(٢) نهاية الإقدام ، ص ٣١٣ .
(٣) انظر : الماتريدية لشمس الدين الأفغاني (٣/٨٤) بنحوه .

لهم بأمر لا يفهمونه ، فثبت أن القول ببدعة الكلام النفسي أمر لا تقره لغة ولا اصطلاح ، ولا عرف كما لا يقره عقل ولا نقل ، ولا إجماع بني آدم ، وكفى به إبطالاً وضلالاً .

قال الإمام السجزي الوائلي (٤٤٤ هـ) : « اعلموا ... ، أنه لم يكن خلاف بين الحق على اختلاف نحلهم من أول الزمان إلى الوقت الذي ظهر فيه ابن كلاب ... » [١] .

وقال الإمام الموفق ابن قدامة المقدسي (٦٢٠ هـ) : « ... قلنا : خالفتم رب العالمين ، وخرقتم إجماع المسلمين ، وجئتم بما لم يأت به أحد من الملحدين ، فإنه لا خلاف بين المسلمين أن كتاب الله هو القرآن العظيم المنزل على سيد المرسلين بلسان عربي مبين ... ، ولا يخفى هذا إلا على من أعمى الله قلبه وأضله عن سبيله ... » [٢] .

وقال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل (٥١٣ هـ) : « ... وهذا باطل ، والجواب عنه من وجوه : أحدها من حيث اللغة ، والثاني : تراجع على اللغة ، والثالث : السنة والرابع : أدلة العقول ، أما طريق اللغة فإنه إجماع أهل اللسان على أن الممسك عن الحروف والأصوات من غير آفة ، وإن كان يمكن أن يكون متفكرًا ، فلو كان الكلام هو التصوير في النفس لكان التفكر أحق بتسمية الكلام من الذي تظهر منه الحروف والأصوات .. » [٣] .

وقال الموفق ابن قدامة المقدسي رحمه الله : « والأمة مجمعة على أن هذا هو القرآن لا تصح الصلاة إلا به ، ولا تصح الخطبة إلا بآية منه ، ولا تقرؤه حائض ولا جنب ، ولما اختلف أهل الحق والمعتزلة ، فقال أهل الحق : القرآن كلام غير مخلوق ، وقالت المعتزلة : هو مخلوق ، لم يكن اختلافهم إلا في هذا الموجود دون

---

(١) رسالة السجزي ص ٨٠ - ٨٢ ، وقد ذكرنا نصه بطوله مع تعليقات عليه .

(٢) حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة ، ص ٢٢ .

(٣) مسألة القرآن ، ص ٧٠ .

ما في نفس الباري مما لا يدري ما هو ولا نعرفه ، ولما أمر الله تعالى بترتيل القرآن بقوله سبحانه : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل : ٤] لم يفهم المسلمون إلا هذا الموجود ، ولما قال الوليد بن المغيرة : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ٢٥] إنما أشار إلى هذا النظم ، فتوعده الله عز وجل فقال : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر : ٢٦] ...» [١] .

قال رحمه الله أيضًا : « ... ولما اختلف أهل الحق والمعتزلة في القرآن : هل هو مخلوق أو لا ؟ ما اختلفوا إلا في هذا الكتاب [أي القرآن العربي الملفوظ] واتفق الجميع على أنه قرآن ، واختلفوا في قدمه وخلقه ومن صورة الاختلاف الاتفاق في محله ، فحصل الإجماع في أمة محمد ﷺ على أن هذا الكتاب هو المنزل ، وثبت بالأدلة القاطعة ... ، أن هذا قرآن فلم يلتفت إلى من خالف ذلك ، وإذا ثبت أنه قرآن فهو سور وآيات وكلمات وحروف بغير إشكال ، وإنكار ذلك جحد للعيان ، ونوع من السفسطة والهذيان ، ومن العجب أن الله تعالى سمى هذا الكتاب قرآنًا ، وسماه النبي ﷺ قرآنًا ، وسمته أمته قرآنًا ، وسمته الجن قرآنًا ، فقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن : ١] وسمته المعتزلة قرآنا ، فجاءت هذه الطائفة [٢] بمخالفة رب العالمين وخلقه أجمعين » [٣] .

الحاصل : أن القول ببدعة الكلام النفسي مع كونه مخالفًا للإجماع والمنقول والمعقول ، مخالف لجميع لغات بني آدم وعرفهم واصطلاحهم ، وكفى بذلك إبطالًا وإضلالًا [٤] .

الوجه السادس :

أن القول ببدعة الكلام النفسي يستلزم إنكار القرآن الكريم من أصله وكفر بالقرآن العظيم من أساسه .

---

(١) المناظرة في القرآن ، مع بعض أهل البدع ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) يعني الكلابية وأتباعهم من الماتريدية والأشعرية .

(٣) البرهان في بيان القرآن ، ص ٥١ .

(٤) انظر : الماتريدية لشمس الدين الأفغاني (٣/٨٩) .

قال الإمام ابن قدامة : « اتفق الجميع على أنه قرآن ... ، فجاءت هذه الطائفة بمخالفة رب العالمين وخلقه أجمعين ، ... فجاءت بطامة إذ من لوازمها كون القرآن مخلوقًا سوى هذا الكتاب ... ، ثم إنهم مع جحدهم كون هذا قرآنًا لا يتجاسرون على إظهار مقالتهم لسلاطين المسلمين ولا لعامتهم ، وإنما يظهرون لهم إنكار الحروف ... وهذا إنما يلبس على عامي غمر ما له من فطنة ، فيعلم يقينًا أن السور آيات ، والآيات كلمات ، والكلمات حروف ، ولا شك في ذلك ، ثم قد صرح النبي ﷺ وأصحابه والتابعون ، ومن بعدهم بالحروف وعد الناس حروف القرآن في الأمصار ، ولم ينكر هذا منكر قبل هذه الطائفة [1] وما أنكرت هذه الطائفة الحروف على الخصوص [2] ، إنما أنكرت هذه الطائفة القرآن كله وجحدته ... » [3] .

الوجه السابع :

أن القول بالكلام النفسي باطل عقلاً ، فإنه يستلزم أن تكون التوراة عين القرآن والقرآن عين الإنجيل ، وهكذا العكس .

قال شيخ الإسلام : « ... وجمهور الناس من أهل السنة والمعتزلة وغيرهم أنكروا ذلك وقالوا : إن فساد هذا معلوم بصريح العقل ، فإن التوراة إذا عربت لم تكن القرآن ، ولا معنى ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ هو معنى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [4] .

وقال رحمه الله : « وجمهور الناس من أهل السنة وأهل البدعة يقولون : إن فساد هذا القول معلوم بالاضطرار ، وأن معاني القرآن ليست هي معاني التوراة المعربة ولا القرآن إذا ترجم بالعبرية هو التوراة ، ولا حقيقة الأمر هي حقيقة الخبر ..» [5] .

---

(١) يعني ابن كلاب ومن تبعه من الماتريدية والأشعرية ؛ لأنهم قالوا هذا القرآن العربي ليس كلام الله بل هو دال على كلام الله ، وكلام الله شيء نفسي لا حرف فيه ولا صوت ، وأما هذا القرآن العربي فهو مخلوق .

(٢) يعني أن الكلابية والماتريدية والأشعرية لم يذكروا الحروف فقط وحسب ، بل جاوز إنكارهم إلى القرآن الكريم نفسه ، فأنكروا القرآن حيث اعتقدوا أنه ليس كلام الله ، وإنما هو كلام نفسه .

(٣) البرهان في بيان القرآن ، ص ٥٢ .

(٤) درء التعارض (١/٢٦٧ ، ٢/١١٠) ، ومجموع الفتاوى (٦/٦٤) .

(٥) درء التعارض (٢/١١٠) .

أقول : لكن التالي باطل فالمقدم مثله ؛ لأن التوراة غير القرآن ، والإنجيل غير الزبور ، وهذه الأمور من المحسوسات البدهيات التي لا يشك فيها أحد [(١)] .

الوجه الثامن :

أن القول ببدعة الكلام النفسي يتضمن لوازم أخرى لا علاقة لواحد منها بالإسلام ، بل كل واحد من هذه اللوازم يضاد الإسلام ، ومن القواعد البدهية المقررة أن بطلان اللازم دليل على بطلان الملزوم .

قال شيخ الإسلام في إبطال قولهم : « الكلام لنفي معنى واحد ، فقالوا : القول الذي لزمته تلك اللوازم التي عظم فيها نكير جمهور المسلمين ، بل جمهور العقلاء عليهم ، وأنكر الناس عليهم أمورًا منها :

١ – إثبات معنى واحد هو الأمر والنهي .

٢ – جعل القرآن العربي ليس من كلام الله الذي تكلم به .

٣ – وأن الكلام المنزل ليس هو كلام الله [(٢)] .

٤ – وأن التوراة والإنجيل إنما تختلف عباراتها ، فإذا عرب عن التوراة بالعربية كان [(٣)] هو القرآن [(٤)] .

٥ – أن الله لا يقدر أن يتكلم .

٦ – وأنه لا يتكلم بمشيئته واختياره .

٧ – وتكليمه لمن خلقه – كموسى وآدم – ليس إلا خلق إدراك ذلك المعنى بهم ، فالتكليم هو خلق الإدراك فقط [(٥)] .

٨ – ومنهم من يقول : بل كلام الله لا يسمع بحال [(٦)] .

---

(١) الماتريدية ، لشمس الدين الأفغاني رحمه الله (٣/٩٠) .

(٢) لأن كلام الله عندهم هو الكلام النفسي دون اللفظي ، كما سبق ذكره .

(٣) هكذا في الأصل ، ولعل الأولى أن يقال : كانت في القرآن ليرجع الضمير إلى التوراة ، والمعنى أن التوراة لو ترجمت إلى العربية كانت هي القرآن عندهم .

(٤) وهكذا صريح قولهم كما سبق .

(٥) وهذا أوفق بمذهب الماتريدية والأشعرية معهم في الحقيقة كما سبق .

(٦) وهذا صريح مذهب الماتريدية والأشعرية .

وجمهور العقلاء يقولون : إن فساد هذه الأقوال معلوم بالضرورة ... .
إلي غيرها من اللوازم الباطلة الكفرية التي لا يقرها عقل ولا نقل ولا إجماع [١] .

الوجه التاسع :

أن هؤلاء الكلابية وأتباعهم من الماتريدية والأشعرية صرحوا بأن كلام الله تعالى ينافي الخرس والسكوت ، ومعلوم بدليل الحس والعقل والمشاهدة أن المنافي للخرس والسكوت هو الكلام اللفظي دون الكلام النفسي ؛ لأن الكلام النفسي لا ينافي الخرس والسكوت ، فإن الأخرس والساكت له كلام نفسي ، وإن لم يكن له كلام لفظي ، فإنه لا شك أن الأخرس عاجز عن الكلام اللفظي ولكنه يقدر في نفسه معنى ، ولكنه لم يظهره على لسانه بعد ؛ لأنه لو نطق به لا يقال له إنه ساكت ، بل يقال له إنه ناطق ، فثبت أن الكلام النفسي لا ينافي الخرس والسكوت ، وإنما ينافيهما هو الكلام اللفظي .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : « ... وأيضًا فقولك : لو لم يتصف بالكلام لاتصف بالخرس والسكوت ، إنما يعقل في الكلام بالحروف والأصوات ، فإن الحي إذا فقدها [٢] لم يكن متكلمًا ، فإما أن يكون قادرًا على الكلام ولم يتكلم وهو الساكت ، وإما أن لا يكون قادرًا عليه وهو الأخرس ، وأما ما يدعونه من الكلام النفسي فذلك لا يعقل لأن من خلا عنه كان ساكتًا أو أخرس ، ... والسكوت والخرس يتصور إذا تصور الكلام ، فالساكت هو الساكت عن الكلام والأخرس هو العاجز عنه ، أو الذي حصلت له آفة في محل النطق تمنعه عن الكلام ، وحينئذ فلا يعرف الساكت والأخرس حتى يعرف الكلام ، ولا يعرف الكلام حتى يعرف الساكت والأخرس ... » [٣] .

---

(١) درء التعارض (٢/١١٤ - ١١٥ ، ٦/٢٨٨) .

(٢) أي الحروف والأصوات .

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٢٩٥ - ٢٩٦) .

الوجه العاشر :

أن قولهم ببدعة الكلام النفسي يلزمه أن يكون خبر الله تعالى عين الإنشاء وبالعكس ، وأمره عين النهي وبالعكس ؛ لأنهم قالوا : إن كلام الله شيء واحد لا أمر فيه ولا نهي ولا يتجزأ ، وهذا قول في غاية السفاهة والحماقة ، فإنه مكابرة للمشاهدة والعيان .

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه (٧٩٢ هـ) : « وهذا الكلام فاسد ؛ فإن لازمه أن معنى قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء : ٣٢] هو معنى قوله : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] ومعني آية الكرسي [١] هو معنى آية الدين [٢] ومعنى سورة الإخلاص هو معنى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ وكلما تأمل الإنسان هذا القول تبين له فساده وعلم أنه مخالف لكلام السلف ... » [٣] .

الوجه الحادي عشر : برهان التناقض والاضطراب :

إننا نسأل من يقول بالكلام النفسي أن الله تعالى لما كلم موسى تكليمًا هل فهم موسى جميع كلام الله أم بعضه ؟!! فإن قلتم فهم موسى عليه السلام أو سمع جميع كلام الله تعالى فقد ارتكبتم كفرًا بواحًا حيث ادعيتم أن موسى عليه السلام قد أحاط بجميع كلام الله تعالى وعلمه ، وقلتم بأن لكلامه تعالى انتهاء ، وأنتم لا تقولون به أبد الآبدين ، وإن قلتم فهم موسى أو سمع بعض كلام الله تعالى فقد أبطلتم الكلام النفسي بأنفسكم من حيث لا تشعرون ؛ لأنكم قلتم أولًا إن كلام الله تعالى أمر نفسي لا يقبل التجزؤ والتبعض ، وقد قبل الآن حيث صار بعضه مسموعًا لموسى ومفهومًا له ، وبعضه غير مسموع وغير مفهوم له ، وهذا هو التناقض الواضح .

---

(١) سورة البقرة ، ٢٥٥ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٢ وتسمى آية المداينة .

(٣) شرح الطحاوية ، ص ١٩١ - ١٩٢ ، وراجع : درء التعارض (٢٦٧/١ ، ١٠٠/٢ ، ١١٩/٤ - ١٢٤) .

قال الإمام أبو نصر السجزي : « خاطبني بعض الأشعرية يومًا في هذا الفصل وقال : التجزؤ على القديم غير جائز ، فقلت له : أتقر بأن الله أسمع موسى كلامه على الحقيقة بلا ترجمان ؟.. ما تقول في موسى عليه السلام حيث كلمه الله ؟! ... إن قلت : إنه عليه السلام فهم كلام الله مطلقًا ، اقتضى أن لا يكون لله كلام من الأزل إلى الأبد إلا وقد فهمه موسى ، وهذا يؤول إلى الكفر ، وإذا لم يجز إطلاقه (١) ألجئت إلى أن تقول : أفهمه الله ما شاء من كلامه دخلت في التبعيض (٢) الذي هربت منه وكفرت من قال به ... » (٣) .

وقال رحمه الله : « وفي ذلك اشتراك مع الله في علم الغيب وذلك كفر بالاتفاق وفيه أيضًا رد لقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] فبين أن الرسل لا يعلمون بما في نفسه عز وجل ، وإذا علمه موسى فصار عالمًا بنفس الله عز وجل وذلك غير جائز بالاتفاق » (٤) .

قلت : هذا هو بيان تناقض أصحاب الكلام النفسي ، فتارة يقولون : الكلام النفسي لا يتجزأ ولا يتبعض ، وتارة يقولون إن كلام الله بعضه مسموع أو مفهوم ، وبعضه غير مسموع وغير مفهوم ، فاعترفوا بالتبعيض والتجزؤ .

قال شيخ الإسلام في بيان تناقضهم : « ... فقيل لهم : عندكم هو [أي الكلام] (٥) معنى واحد لا يتبعض ولا يتعدد ، فموسى عليه الصلاة والسلام ، فهم

---

(١) أي : إذ لم يجز عندك إطلاق القول بأن موسى عليه السلام سمع أو فهم جميع كلام الله بل تقول إن موسى عليه السلام سمع أو فهم بعض كلام الله تعالى .

(٢) دخلت في التبعيض وأقررت أن كلام الله ذو أبعاض وأجزاء وهدمت أصلك وناقضت قولك عن أن الكلام النفسي لا يتجزأ ، ولا يتبعض وهذا هو التناقض .

(٣) انظر : درء التعارض (٢/٩٠ - ٩٢) نقلاً عن كتاب الإبانة للإمام أبي نصر السجزي الوائلي .

(٤) الرد على من أنكر الحرف والصوت ، ص ١١٤ ، للإمام أبي نصر السجزي في رسالته إلى أهل زبيد .

(٥) زيادات للإيضاح .

المعنى كله أو بعضه ؟ إن قلتم : كله ، فقد علم علم الله كله ، وإن قلتم : [فهم أو سمع] (١) بعضه فقد تبعض ، وعندكم [أنه] (٢) لا يتبعض » (٣) .

الوجه الثاني عشر : برهان التحدي والإعجاز :

أن الأمة الإسلامية مجتمعة على أن القرآن معجز للجن والإنس عن أن يأتوا بمثله ومعلوم أن الله تعالى قد تحدى به الكفار بل الإنس والجن جميعاً أن يأتوا بمثله ، بل بعشر سور مثله ، بل بسورة مثله ، بل بحديث مثله ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] وقال عز وجل : ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ ﴾ [هود : ١٣] وقال سبحانه : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٣] وقال سبحانه : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس : ٣٨] وقال عز من قائل : ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الطور : ٣٤] .

فثبت بهذه البراهين القاطعة أن القرآن الكريم معجز ومتحدى به ومعلوم أن الكلام النفسي لا يتصور معارضته ولا يتحدى به ، فليس هذا الإعجاز والتحديث إلا بالقرآن العربي الملفوظ المسموع ، فلو لم يكن هذا القرآن العربي الملفوظ المسموع معجزًا أو متحدى به لم يعجز الخلق عن الإتيان بمثله ، ولم يصح التحدي من الله تعالى به ، لكن التالي باطل فالمقدم مثله ، وهذا واضح لمن عرف قيمة كتاب الله تعالى ، وقدر القرآن العظيم وعظمة كلام الله تعالى ، وللإمام ابن أبي العز الحنفي كلام قيم فارجع إليه (٤) .

أقول : كون القرآن العربي الملفوظ المسموع معجزًا ، ومتحدى به دون الكلام النفسي قد اعترف به كثير من كبار الماتريدية والأشعرية كرهًا دون طوع اضطرارًا لما

---

(١) زيادات للإيضاح .

(٢) زيادات للإيضاح .

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٢٢٣) .

(٤) الرد على الجهمية ، ص ٩٩ ، والطحاوية ٢٠٠ .

رأوا مقالتهم في الكلام النفسي في غاية التناقض ، فهذا عصام الدين (٩٥١ هـ) قد اعترف بهذه الحقائق [١] ، وكذا الجرجاني (٨١٦هـ) أيضًا فقد قال بعد كلام طويل وتحقيق أن كلام الله تعالى هو الكلام اللفظي : «والذي لا شبهة فيه وأنه أقرب إلى الأحكام الظاهرية المنسوبة إلى الملة » [٢].

واعترف بها قبله التفتازاني (٧٩٢هـ) واستشكل الكلام النفسي جدًا ، وحاول الجواب عن هذه الإشكالات ، ولكنه لم يوفق للأجوبة الصحيحة [٣].

واعترف بهذه الحقائق قبله القاضي العضد الإيجي (٧٥٦هـ) من الأشعرية حيث قال في الرد على الأشعرية القائلين بالكلام النفسي : « هذا الذي فهموه [أي الأشعرية] من كلام الشيخ الأشعري [أن المراد من الكلام هو الكلام النفسي دون اللفظي] باطل ، إذ له لوازم باطلة كثيرة » . ثم ذكر الإيجي عدة من اللوازم الباطلة التي يستلزمها القول ببدعة الكلم النفسي :

١ - منها عدم إكفار من أنكر كلامية ما بين دفتي المصحف ، مع أنه علم من الدين بالضرورة كونه كلام الله حقيقة .

٢ - عدم المعارضة والتحدي بكلام الله الحقيقي .

٣ - عدم كون المقروء والمحفوظ كلامه حقيقة .

ثم قال الإيجي : إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتفطن في الأحكام الدينية ، فوجب حمل كلام الشيخ [الأشعري] على أنه أراد به المعنى الثاني ، فيكون الكلام النفسي عنده أمرًا شاملًا للفظ والمعنى جميعاً » .

ثم قال : « وهذا الذي ذكرناه وإن كان مخالفًا لما عليه متأخرو أصحابنا إلا أنه بعد التأمل تعرف حقيقته » [٤] .

---

(١) انظر : حاشية العصام على شرح العقائد النسفية ، ص ١٨٨ .

(٢) شرح المواقف (١٠٣/٨ - ١٠٤) .

(٣) شرح العقائد النسفية ، ص ٦١ ، مع الحاشية رقم ٧ .

(٤) كلام الإيجي هذا قد ساقه الجرجاني في شرح المواقف (١٠٣/٨ - ١٠٤) وقال الجرجاني : « واعلم أن للمصنف الإيجي مقالة مفردة في تحقيق كلام الله » ثم ذكر نفس كلامه . =

أقول : لقد نقل عصام الدين أحد كبار الماتريدية الحنفية كلام الإيجي والجرجاني ثم قال : « ولا شبهة في كونه أقرب .... » [١] .

الحاصل : أن دليل التحدي وبرهان الإعجاز من أوضح براهين إبطال القول بالكلام النفسي [٢] .

الوجه الثالث عشر : برهان العقل والتصور :

وهو أن القول ببدعة الكلام النفسي أمر غير معقول وغير متصور ، حتى إن هذه الفرقة المعطلة أصحاب القول بالكلام النفسي لم يثبتوا الكلام النفسي ، بل لم يعقلوه ، بل لم يتصوروه ، والحكم على الشيء فرع عن تصوره ؛ لأن القول بهذه البدعة لا يقره عقل ولا يتصوره أحد من بني آدم تصورًا صحيحًا فضلًا عن هؤلاء المعطلة ، وبيان ذلك في كلام شيخ الإسلام حيث قال رحمه الله مبطلًا بدعة الكلام النفسي : « ... لأن إثبات كلام يقوم بذات المتكلم بدون مشيئته وقدرته غير معقول ولا معلوم ، والحكم على الشيء فرع عن تصوره ، فيقال للمحتج بها [بالحجة العقلية] لا أنت ولا أحد من العقلاء يتصور كلامًا يقوم بذات المتكلم بدون مشيئته وقدرته ، فكيف تثبت بالدليل المعقول شيئًا لا يعقل ؟؟.. ، وأول ما يدعونه الكلام النفسي ، فذاك لا يعقل .. ، وأيضًا فالكلام القديم النفساني الذي أثبتموه لم تثبتوه ما هو ؟ بل ولا تصورتموه ، وإثبات الشيء فرع عن تصوره ، فمن لم يتصور ما يثبته ، كيف يجوز أن يثبته ، ولهذا كان أبو سعيد بن كلاب رأس هذه الطائفة وإمامها في هذه المسألة ، لا يذكر في بيانها شيئًا يعقل ، بل يقول : هو معنى يناقض السكوت والخرس ، والسكوت والخرس إنما يتصوران إذا تصور الكلام ... ، فتبين أنهم لم يتصوروا ما قالوه ولم يثبتوه ، بل هم [أي الماتريدية والأشعرية أتباع الكلابية] في

= ولكني لم أجد هذه المقالة هل طبعت أم هي من جملة المخطوطات ؟؟!! ونقل نفس هذا الكلام أيضًا العصام في حاشيته ، ص ١٨٨ ، والفربهاري في النبراس ، ص ٢٣٣ .

(١) حاشية العصام على شرح العقائد النسفية ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) انظر : الماتريدية ، لشمس الدين الأفغاني (٣/١٠١ - ١٠٢) .

الكلام يشبهون النصارى في الكلمة ، وما قالوه في الأقانيم [١] والتثليث والاتحاد ، فإنهم يقولون ما لا يتصورونه ولا يبينونه ، والرسل عليهم الصلاة والسلام إذا أخبروا بشيء ، ولم نتصوره وجب تصديقهم ، وأما ما يثبت بالعقل فلابد أن يتصوره العاقل به ، وإلا كان قد تكلم بلا علم ، فالنصارى تتكلم بلا علم ، فكان كلامهم متناقضًا ولم يحصل لهم قول معقول [٢] كذلك من تكلم فى كلام الله بلا علم كان كلامه متناقضًا ، ولم يحصل له قول معقول ، ولهذا كان مما يشنع على هؤلاء أنهم احتجوا في أصل [٣] دينهم وحقيقة الكلام - كلام الله وكلام جميع الخلق - بقول شاعر نصراني يقال له : الأخطل » .

قلت : لقد اعترف كثير من هؤلاء الكلابية من الماتريدية والأشعرية بعجزهم عن إثبات الكلام النفسي وحيرتهم أمام الإشكالات الواردة على الكلام النفسي ، وإليك ذكر بعض الأمثلة :

الأول : أن الآمدي (٦٣١ هـ) قال : بأن الجواب عن الإشكالات الواردة على الكلام النفسي مشكل [٤] .

---

(١) جمع الأقنوم بضم الهمزة وسكون القاف وضم النون ، كلمة رومية معناها الأصل ، انظر : القاموس : ص ١٤٨٧ ، والأقانيم في مصطلحات النصارى وهي ثلاثة ، وعليها بنوا عقيدتهم في التثليث أي جعل الإله ثلاثة أشياء ، هي عندهم عند عامة النصارى « الإله الأب » و « الإله الابن » و « روح القدس » راجع : الجواب الصحيح (٢/٢٤٥) ، وهداية الحيارى (١/١١٦) ، انظر : مقارنة الأديان للدكتور الشلبي (٢/١٣٩) ، وراجع : الملل والنحل للشهرستاني (١/٢٤) .

(٢) انظر : لبيان اضطراب النصارى وتناقضهم وحيرتهم وعدم استطاعتهم في التعبير عن خرافتهم في الأقانيم ، الفصل لابن حزم (١/٤٠ - ٤٣) ، والملل والنحل للشهرستاني (١/٢٢٠ - ٢٢٨) ، والجواب الصحيح (٢/٢٤٥ - ٢٥٩ ، ٣/٥٣ - ١٠٣) ، وهداية الحيارى ، ص (١٦٤ - ١٦٦) ، ومقارنة الأديان ، للشلبي (٢/١٣٨ - ١٤٦) .

(٣) لأن مسألة كلام الله تعالى أصل لدين الإسلام ، فإن الأمر والنهي والتشريع موقوف على كلام الله تعالى .

(٤) كما في درء التعارض (٤/١١٩) ، ومجموع الفتاوى (٦/٢١) والآمدي قال ذلك في كتابه المشهور أبكار الأفكار (١/٩٨/أ) المخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٦٠٣) ، علم الكلام كما في تعليق الدكتور محمد رشاد سالم على درء التعارض (١/١٦٤) .

الثاني : أن القاضي العضد الإيجي أحد كبار أساطين الأشعرية (٧٥٦ هـ) قد فر من تلك الإشكالات الواردة على الكلام النفسي واضطر إلى الاعتراف بالكلام اللفظي ، وحمل عليه كلام الأشعري كما سبق .

الثالث : أن التفتازاني (٧٩٢ هـ) قد فر من تلك الإشكالات ولم يجد لها جواباً شافياً ، وهذا واضح لمن يطلع على كلامه في مظانه [١] .

الرابع : أن العصام أحد كبار الماتريدية (٩٥١ هـ) قد صرح بأن التفتازاني قد سلم بالإشكال الوارد على الكلام النفسي [٢] .

الخامس : أن الجرجاني (٨١٦ هـ) خاف من تلك الإشكالات الواردة على الكلام النفسي ، واختار وتبع العضد الإيجي فى الاعتراف بالكلام اللفظي [٣] .

السادس : أن العصام الماتريدي أيضًا نقل كلام القاضي العضد الإيجي الأشعري وتعليق الجرجاني عليه ، ثم وافقهما في الجملة في الإقرار بالكلام اللفظي [٤] .

السابع : أن المرعشي أحد كبار الماتريدية (١١٥٠ هـ) اعترف بما اعترف به الإيجي الأشعري والجرجاني ، وقال مقرًا ببعض الحق عن القول بالكلام النفسي مضطرًا : أقول : « الحاصل أن كلامه تعالى هو العبارات المنظومة كما هو مذهب السلف » [٥] .

الثامن : أن البهشتي أحد كبار الماتريدية (٩٧٩ هـ) اعترف بالعجز عن إثبات الكلام النفسي ، فقال : « إن ثبوت الكلام النفسي دونه خرط القتاد » [٦] .

---

(١) انظر : شرح العقائد النسفية ، ص ٦١ .

(٢) انظر : حاشية العصام على شرح العقائد النسفية ، ص ١٨٨ .

(٣) انظر : شرح المواقف (١٠٣/٨ - ١٠٤) .

(٤) انظر : حاشية العصام على شرح العقائد النسفية ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٥) نشر الطوالع ، ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

(٦) انظر : حاشيته على حاشية الخيالي على شرح العقائد النسفية ، ص ٦٧ .

قلت : لا شك أن بدعة الكلام النفسي وتقسيم القرآن إلى القرآن اللفظي والنفسي دونهما خرط القتاد [١] .

الوجه الرابع عشر : برهان نفي المجاز عندهم :

أن الماتريدية والأشعرية صرحوا أن الكلام مجاز في اللفظي حقيقي في النفسي ؛ لأنهم قالوا : إنما يطلق على هذا القرآن العربي الملفوظ المسموع أنه كلام الله مجازًا لأنه دال على كلام الله النفسي ، فأطلق على القرآن كلام الله تسمية للدال باسم المدلول ، وهذا طريق المجاز .

فالكلام الحقيقي هو الكلام النفسي ، وهذا القرآن العربي اللفظي عبارة عن ذلك الكلام النفسي ، والكلام الحقيقي هو النفسي : وهذا القرآن العربي اللفظي المسموع كله مجازًا [٢] .

هذه طامة واحدة وتليها ثانية ، وهي أنهم قالوا أيضًا : إن المجاز يجوز نفيه كقولك لرجل شجاع : هذا أسد ، فيجوز لك أن تقول عندهم : هذا ليس بأسد [٣] ، هكذا قالوا ، وهذه طامه ثانية .

قال الشنقيطي رحمه الله في منع جواز المجاز : «وأوضح دليل علي منعه في القرآن إجماع القائلين بالمجاز على أن كل مجاز يجوز نفيه ، ويكون نافيه صادقًا في نفس الأمر ، فتقول لمن قال : رأيت أسدًا يرمي ، ليس هو بأسد وإنما رجل شجاع فيلزم على القول بأن في القرآن مجازًا أن في القرآن ما يجوز نفيه ، ولا شك أنه لا يجوز نفي شيء من القرآن ...» [٤] .

---

(١) انظر الماتريدية لشمس الدين الأفغاني ، (٣/٩٣ - ٩٦) .

(٢) راجع تأويلات الماتريدية في تفسير الآيتين (٥١ - ٥٢) من سورة الشورى ، وأصول الدين للبزدوي ، ص ٦٠ - ٦١ ، تبصرة الأدلة (١١٨/ب) ، والبداية للصابوني الحنفي ، ص ٦١ ، والعقائد النسفية مع شرحها للتفتازاني ، ص ٥٣ ، والتلويح على التوضيح (١/٢٨) ، وإشارات المرام ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣) انظر : شرح العقائد النسفية ، ص ٦١ ، والنبراس ص ٢٣٠ ، وحاشية العصام على شرح العقائد النسفية ص ١٨٨ .

(٤) منع جواز المجاز ، الشنقيطي ، ص ٨ .

الوجه الخامس عشر: برهان العدم :

وهو أن الكلام النفسي شيء معدوم محض لا وجود له ، ولا عبرة له ، فلا تتعلق به الأحكام لا نفيًا ولا إثباتًا ، ولا إيجابًا ولا سلبًا ؛ لأنه إن قدر تصوره فهو من قبيل حديث النفس وخواطرها ووسواس القلب وهواجس الصدور ، فلا يحل به حرام ولا يحرم به حلال ، ولا يقع به الطلاق ولا العتاق ، ولا تفسد به الصلاه بالاتفاق ، كما صرح به أئمة الإسلام ولا سيما شيخ الإسلام رحمه الله [١].

الوجه السادس عشر : برهان القوة والفعل :

أن الكلام النفسي إن قدر تصوره وتعقله فهو ليس إلا قدرة على الكلام ، أو ليس إلا علمًا بالكلام ، أو ليس إلا إرادة الكلام ، أو تصور الكلام ، أو الكلام النفسي الذي يدين به أهل الإسلام ليس إلا علمًا بالكلام وإرادة للكلام لا عين الكلام [٢] .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نسأل الماتريدية والأشعرية : هل الله تعالى عندكم متكلم بالفعل أم متكلم بالقوة فقط ؟

فإن قلتم : إن الله متكلم بالكلام بالفعل فقد عطلتم الكلام النفسي ؛ لأن الكلام النفسي ليس إلا كلامًا بالقوة ، بحيث لم يتحقق ولم يوجد ولم يخرج من العدم إلى الوجود بعد بخلاف الكلام اللفظي ، فإنه كلام بالفعل والواقع والوجود .

وإن قلتم : إن الله تعالى متكلم بالكلام ، ولكنه متكلم بالقوة لا بالفعل فقد أبطلتم صفة كلام الله ونفيتموها وعطلتموها وحرفتموها إلى صفة العلم ، أو إلى صفة القدرة ، أو إلى صفة الإرادة .

وهذا عين التعطيل ، فإن العقلاء قد أجمعوا على أن الكلام غير العلم وغير القدرة

---

(١) انظر : كتاب الإيمان ، ص ١٣١ - ١٣٢ ، ومجموع الفتاوى (١٣٧/٧ - ١٣٨) ، وشرح الطحاوية ص ١٩٩ .

(٢) انظر : البدور البازغة ، ص ١٠٨ .

وغير الإرادة ، وأن القوة غير الفعل ، وأن الفعل غير القوة ، لأن الفعل تحقق الشيء في الواقع والوجود ، والقوة القدرة على الشيء بحيث لم يوجد بعد في الواقع ، كقولنا للإنسان الكاتب الذي يباشر الكتابة : زيد كاتب ، أي بالفعل .

وإذا كان قادرًا على الكتابة ، ولكنه لم يكن مباشرًا لها وقلنا له : إنه كاتب ، فإن معناه أنه كاتب بالقوة أي أنه قادر على الكتابة لا أنه مباشر لفعل الكتابة .

أقول : مسألة الفعل والقوة ، وأن الكلام اللفظي كلام بالفعل وأن الكلام النفسي كلام بالقوة لا بالفعل ، وأن الكلام النفسي علم بالكلام وإرادة له ، أو العزم على الكلام أو قصد الكلام ، أو تصور الكلام وتعقله في النفس ، أو تخيل الكلام .

قد اعترف بهذه الحقيقة كثير من الماتريدية أيضًا ، فقد صرح عصام الدين الإسفرائيني ، فقال : « إن صفة الكلام إما راجعة إلى صفة العلم بهذه المعاني كما قيل ، أو إلى صفة قدرة التعبير عنها وإظهارها كما يمكن أن يقال ، ثم قال : « إن صفة الكلام لا تنكشف بهذا البيان ، فينبغي أن يحال علمه إلى الله ، ويعترف بأن له كلامًا » (١) .

بل قد صرح الجرجاني بأن الكلام النفسي هو العزم والتخيل (٢) .

وقد صرح الإمام ولي الله بأن الكلام النفسي الذي يدعيه هؤلاء المتكلمون إنما هو العلم والإرادة ، وليس بالكلام الحقيقي حيث قال رحمه الله تعالى : « ولا أدري ما الذي يسمونه كلامًا نفسيًا ليس هو معنى محصلاً مغايرًا للعلم والإرادة أصلاً » (٣) .

والحاصل : أن هذه الاعترافات براهين قاطعة على إبطال الكلام النفسي ، وتثبت أن الكلام النفسي ليس بالكلام إطلاقًا بل هو قدرة على الكلام ، أو إرادة للكلام وتخيل له وتصور له ، وليس بكلام حقيقي (٤) .

---

(١) حاشية العصام على شرح العقائد النسفية للتفتازاني ، ص ١٧٧ .

(٢) انظر : شرح المواقف (٨/٩٧) .

(٣) البدور البازغة ، ص ١٤٤ ، تحقيق : د. صفرو ، ١٤٠٨ ، ط الهند .

(٤) الماتريدية ، لشمس الدين الأفغاني (٣/١٠٣ - ١٠٤) .

الوجه السابع عشر : برهان مضاهاة النصارى :

وهو أن ما يسميه هؤلاء الكلابية ومن اتبعهم من الماتريدية والأشعرية من الكلام النفسي قول فيه مضاهاة للنصارى .

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي ، وغيره من أهل العلم ، واللفظ للأول :

« وههنا معنى عجيب وهو : أن هذا القول له شبه قوي بقول النصارى القائلين بـ« اللاهوت » و « الناسوت » [١] فإنهم يقولون : كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذي لا يمكن سماعه ، وأما النظم مخلوق ، فإفهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت التي قالته النصارى في عيسى عليه الصلاة والسلام ، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه » [٢] .

كان المريسي قد صنف كتابًا في الصفات ، وجعل يقرؤه بمكة في أواخر حياة ابن عيينة فشاع بين علماء أهل مكة ذلك ، وقالوا : صنف كتابًا في التعطيل ، فسعوا في عقوبته وحبسه ، وذلك قبل أن يتصل بالمأمون وقبل أن يجري من المحنة ما جرى ، وقول ابن عيينة : « ما أشبه هذا الكلام بكلام النصارى » [٣] هو كما قال كما بسط في غير هذا الموضع ، فإن عيسى مخلوق وهم يجعلونه نفس الكلمة ولا يجعلونه المخلوق بالكلمة ، وأيضًا فأئمة النصارى كنشتكين أحج فضلائهم الأكابر يقولون : « إن الله ظهر في صورة البشر مترائيًا لنا كما ظهر كلامه لموسى في الشجرة ، فالصوت المسموع هو كلام الله ، وإن كان خلقه في غيره ، وهذا المرئي هو الله ، وإن كان قد حل في غيره .. » [٤] .

---

(١) اللاهوت والناسوت من مصطلحات النصارى في صميم عقيدتهم الفاسدة ، فاللاهوت عندهم هو الله ، والناسوت : المسيح ، أو اللاهوت : الألوهية وعلم العقائد المسيحية ، والناسوت الطبيعة البشرية ، انظر : الجواب الصحيح (٢٨/٣ - ٨٥) ، والرائد ، ص ١٢٧٠ - ١٤٦٧ ، والموسوعة العربية الميسرة (١٥٤٦/٢) .

(٢) شرح الطحاوية ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ، وراجع مجموع الفتاوى (٢٩٦/٦) ، وانظر أيضًا كلامًا للإمام الأشعري في الإبانة ، ص ٦٨ ، تحقيق : فوقيه ، ص ٥٥ ، تحقيق : الأرناؤوط ، ط دار البيان ص ٨٩ ، طبعة الجامعة الإسلامية .

(٣) قلت : كلام الإمام ابن عيينة هذا رواه أبو نعيم في الحلية (٢٩٦/٧) .

(٤) انظر : شرح العقيدة الأصفهانية ، ص ٦٥ .

الوجه الثامن عشر : برهان الوقوع في اقبح التشبيه :

وهو أن أصحاب الكلام النفسي من الكلابية والماتريدية والأشعرية إنما فروا بالكلام اللفظي خوفًا من تشبيه الله تعالى بالإنسان ، فقالوا ببدعة الكلام النفسي تحقيقًا لتنزيه الله تعالى ، ولكنهم وقعوا في أشنع التشبيه وأبشعه لأنهم لما نفوا عن الله تعالى كلامًا لفظيًا ، ووصفوه بأن له كلامًا نفسيًا بلا حرف ولا صوت ، قد شبهوا الله تعالى بالإنسان الساكت ، بل بالإنسان الأخرس ، بل شبهوا الله تعالى بالحيوانات العجماوات التي لا تتكلم ، بل أنزلوا الله تعالى منزلة أخس من عجل السامري الذي كان له خوار [(١)] ، بل شبهوا الله تعالى بالجمادات التي لا تقدر على التكلم أصلاً ولا عندها صلاحية الكلام البتة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى شبه الله بإنسان له قلب ونفس يهيئ الكلام في قلبه ويقلده ويدبره ويقلبه بين خواطره وهواجسه ووساوسه ، فنسبوا الكلام إلى النفس ، وسموه نفسيًا مع إنكارهم لصفة النفس .

فإن الماتريدية صرحوا بأن نسبة النفس إلى الله تعالى واردة في النفوس على سبيل المشاكلة [(٢)] على سبيل الثبوت له تعالى [(٣)] .

ولكن هذا الذي يهيئ الكلام في نفسه قد يكون أفضل لأنه قد يتكلم به بحرف وصوت فيكون كلامًا نفسيًا مسموعًا ، أما الله عندهم فإنه لا يتكلم بحرف ولا صوت ولا يسمع كلامه أحد من خلقه فجعلوا المخلوق أكمل من الخالق هذا هو التنزيه الذي يدين به الكلابية والماتريدية والأشعرية ، وما هو في الحقيقة إلا

---

(١) انظر : قصة عجل السامري في سورة الأعراف ، الآية ١٤٨ ، وراجع : الإبانة للأشعري ، ص٥٦ - ٥٧ ، ٧١ - ٧٢ ، تحقيق : الأرناؤوط ، وص ٩٠ - ٩١ طبعة الجامعة الإسلامية .

(٢) المشاكلة : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، ومنه قول الشاعر :

قالوا اقترح شيئًا نجد لك طبخه ... قلت اطبخوا لي جبة وقميصًا

انظر : الإرشادات والتنبيهات للجرجاني ، ص ٢٦٧ ، والإيضاح ، ص ٤٩٣ - ٤٩٤ .

(٣) انظر : إرشاد العقل السليم ، لأبي السعود (١٠١/٣) .

تعطيل وإلحاد في صفات الله ، ووصف له بالنقائص ، فقد قال الأشعري رحمه الله في الرد على الجهمية : « فلم يثبتوا له في وصفهم حقيقة ، ولا أوجبوا له بذكرهم إياه وحدانية ، إذ كل كلامهم يؤدي إلى التعطيل ، وجميع أوصافهم له تعالى تدل على النفس ، يريدون بذلك التنزيه ، ونفي التشبيه على زعمهم ، فنعوذ بالله من تنزيه يوجب النفي والتعطيل » (١) .

الوجه التاسع عشر : برهان المطالبة :

وهو أننا نطالب الماتريدية بتعيين أول شخص تكلم بهذا القرآن الكريم إذا لم يتكلم الله تعالى بهذا القرآن العربي الملفوظ المسموع ، فمن هو الذي تكلم بهذا القرآن العربي الملفوظ المسموع أولاً ؟؟!! ومن هو الذي أنشأ هذا القرآن العربي المؤلف من السور والآيات والجمل والكلمات والحروف ؟؟!! فإن قلتم إن أول من تكلم بهذا القرآن الملفوظ المسموع رسول الله ﷺ أو جبريل أو شخص آخر غير الله تعالى ، فقد ضارعتم الكفار المشركين من أهل مكة ، وضاهيتم المشركين الذين كانوا يقولون : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ٢٥] وهذا في غاية الوضوح والتبيان ، وقد استدل كثير من أئمة السنة على هؤلاء بهذا الدليل القاطع (٢) .

الوجه العشرون :

أن الله تعالى قد قال لنبيه زكريا عليه السلام : ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عمران : ٤١] وقال : ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم : ١٠] وقال جبريل لمريم عليهما السلام : ﴿ فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٦] فهل كان المراد نفي الكلام

---

(١) انظر : الإبانة (١١٧/٢) ، تحقيق : فوقيه .

(٢) راجع : الرد على الجهمية للدارمي ، ص ١٥٩ ، تحقيق : البدر ، والإبانة للأشعري (٢/٦٩ - ٧٠) تحقيق : فوقيه ، وص ٥٦ تحقيق : الأرناؤوط ، طبعة دار البيان ، وص ٩٠ طبعة الجامعة الإسلامية ، والأسماء والصفات ص ١٩٢ ، والاعتقاد ص ٩٦ كلاهما للبيهقي ، والعقيدة الطحاوية مع شرحها لأبي العز الحنفي ، ص ٢٠١ ، وفتح الباري لابن حجر (٤٥٤/١٣) .

النفسي ؟؟ مع أنهما كانا يستطيعان أن يتكلما بالكلام النفسي ، فدل ذلك على أن التكلم في شرع الله وعرف الناس هو الكلام اللفظي دون الكلام النفسي .

ومعلوم أن الإشارة والرمز ليس من الكلام في شيء ، وقوله تعالى : ﴿ إلا رمزًا ﴾ استثناء منقطع حتى باعترافهم (١) .

فدل على أن الكلام النفسي ليس من الكلام المعهود المعقول في شيء (٢) .

الوجه الحادي والعشرون :

أن الله تعالى قال : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾ [البقرة : ١١٨] فهل كان الكفار يطلبون أن يكلمهم الله تعالى بالكلام النفسي الذي ليس بحرف ولا صوت ، ولا يستطيع أحد أن يسمعه ؟؟!! فإن كانوا يريدون هذا لم تكن لهم أية فائدة فيه ، وإن كانوا يريدون أن يكلمهم الله تعالى بالكلام اللفظي المسموع ثبت الكلام اللفظي لله تعالى ؛ لأن الله تعالى لم يشنع عليهم لأجل أن سؤالهم كان غير معقول ، أو أن الله تعالى لا يستطيع أن يتكلم بكلام لفظي مسموع ، بل شنع عليهم لأجل تعنتهم وعدم تصديقهم لرسول الله ﷺ .

وهذه حقيقة اعترف بها أبو منصور الماتريدي (٣٣٣ هـ) أيضًا (٣) . حيث قال في تفسير هذه الآية : « ولا أنكر على الذين قالوا (لولا يكلمنا الله) إلا بوصف التكبر والجهل بمنزلة أنفسهم » .

الوجه الثاني والعشرون : برهان التكليم وهو قوله تعالى :

﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] :

---

(١) انظر : المدارك (١/٢١٤) ، وإرشاد العقل (٢/٣٤) .

(٢) انظر : الماتريدية لشمس الدين الأفغاني (٣/١٢١) .

(٣) كتاب التوحيد للماتريدي ص ٥٧ ، وهكذا اعترف بهذه الحقيقة في كتابه التأويلات (١/٢٦٩) تحقيق : د. إبراهيم عوضين (١/٢٣٤) ، تحقيق د. محمد عبد الرحمن ، وانظر : المدارك للنسفي (١/٨٣) .

أقول : ههنا تنبيهات تقوي هذا الاستدلال على صحة الكلام اللفظي وإبطال الكلام النفسي :

الأول : أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى قد استدل بهذه الآية على أن موسى سمع كلام الله تعالى ، حيث قال : « وسمع موسى كلام الله كما قال تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ (١) .

لكن الماتريدية خالفوا إمامهم فقالوا : إن موسى عليه السلام لم يسمع كلام الله ، وإنما صمع صوتًا مخلوقًا في الشجرة .

الثاني : أن الله تعالى أكد الفعل بالمصدر ، فدل هذا دلالة قاطعة على أن الله تعالى كلم عبده ورسوله موسى عليه السلام كلامًا حقيقيًا لفظيًا مسموعًا ، وهذا من أقوى الحجج على إبطال الكلام النفسي ، فإن الكلام النفسي لا يسمع بحال ، بل سماعه محال (٢) .

وإليك بعض كلام أهل العربية :

١ - قال الإمام **أبو زكريا يحيى الفراء** (٢٠٧ هـ) : « العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلامًا بأي طريق وصل ، ولكن لا تحققه بالمصدر (أي المفعول المطلق) فإذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام » (٣) .

٢ - وقال الإمام **أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب** الكوفي (٢٩١هـ) : « لولا أن الله تعالى أكد الفعل بالمصدر لجاز أن يكون كما يقول أحدنا للآخر كلمت لك فلانًا ، بمعنى : كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولاً ، فلما قال : « تكليمًا » لم يكن إلا كلامًا مسموعًا من الله » (٤) .

---

(١) الفقه الأكبر مع شرحه للقاري ، ص ٤٦ .

(٢) انظر : الماتريدية لشمس الدين الأفغاني (١٣٥/٣ - ١٣٦) .

(٣) معالم التنزيل للبغوي (٥٠٠/١) عن الفراء ، ولم أجده في معاني القرآن للفراء ، فربما في كتاب آخر له .

(٤) زاد المسير لابن الجوزي (٢٥٦/٢) عن ثعلب ولم أهتد إلى مظنته .

٣ - وقال الإمام **أبو العباس إبراهيم الزجاج** (٣١١ هـ) : « اعلم أن الله عز وجل كلم موسى بغير وحي [١] وأكد ذلك بقوله : « تكليما » فهو كلام كما يعقل الكلام لا شك في ذلك » [٢] .

٤ - وقال **الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس** (٣٣٨ هـ) : « تكليمًا : مصدر مؤكد ، وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازًا ، وأنه لا يجوز في قول الشاعر : امتلأ الحوض وقال قطني [٣] أن يقول : قولا ، فكذا لما قال : تكليمًا ، وجب أن يكون كلامًا على الحقيقة من الكلام الذي لا يعقل » [٤] .

٥ - وقال **القرطبي** (٦٧١ هـ) : « تكليمًا : مصدر معناه التأكيد يدل على بطلان قول من يقول خلق لنفسه كلامًا في الشجرة فسمعه موسى ، بل هو الكلام الحقيقي الذي يكون به المتكلم متكلمًا » ، ثم ذكر كلام النحاس المتقدم آنفًا [٥] .

٦ - **وقال القاري** : « أتى بالمصدر المؤكد لدفع حمل الكلام على المجاز ، أي كلمه الله تكليمًا محققًا ، وأوقع له سماعًا مصدقًا ، والمعنى أن موسى عليه السلام سمع كلام رب الأرباب بلا واسطة إلا أنه من وراء حجاب » .

التنبيه الثالث : لقد بوب الإمام البخاري (٢٥٦ هـ) في كتاب التوحيد في صحيحه فقال : « باب قول الله ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ ثم ذكر عدة أحاديث فيها تكليم الله تعالى لموسى كلامًا حقيقيًا لفظيًا مسموعًا [٦] .

وقد ذكر الإمام البيهقي عدة من الآيات التي كلم الله بها موسى عليه السلام ثم

---

(١) أي مباشرة بدون واسطة الملك .

(٢) معاني القرآن ، للزجاج (١٣٣/٢) .

(٣) لم أعرف هذا الشاعر ، ولم أعثر على نسبته لأحد ، وانظر هذا البيت في مجالس ثعلب (١/ ١٨٩) ، والكامل (٦١٥/٢) ، وبعده : مهلاً رويدًا قد ملأت بطني .

(٤) إعراب القرآن (٥٠٧/١) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٦) .

(٦) منح الأزهر شرح الفقه الأكبر ، ص ٤٦ .

قال : « فهذا كلام سمعه موسى عليه السلام بإسماع الحق إياه ، بلا ترجمان بينه وبينه » [(١)] .

وهكذا استدل جمع من الأئمة بهذه الآية على إثبات كلام الله اللفظي المسموع وأن موسى عليه السلام قد سمع كلام الله الحقيقي اللفظي ، فهو كليم الله حقيقة وحقاً لا مجازاً ولا باطلاً [(٢)] .

قلت : لقد تبين من هذه الآية وشرحها في هذه التنبيهات أن الله تعالى قد كلم موسى تكليماً ، بكلام حقيقي لفظي مسموع بصوت وحرف ، وأن هذه الآية نص في هذه المسألة لغة وعرفاً ، مع تصريح أئمة الإسلام بذلك ، ودلت هذه الآية مع هذه التنبيهات أيضًا على إبطال الكلام النفسي الذي يدعيه الكلابية ومن تبعهم من الماتريدية والأشعرية .

ومع ذلك كله ترى هؤلاء يحرفون هذه الآية وما دلت عليه ، وقالوا : إن موسى لم يسمع كلام الله ، وإنما سمع صوتًا مخلوقًا في الشجرة [(٣)] .

وقال البياضي : « إن التكليم لا يتوقف على السماع من الله بالذات وليس في النظم الجليل يعني هذه الآية ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ أنه سمع من موسى عن الله ، بل إنه تعالى كلمه [إن موسى لم يسمع كلام الله على الحقيقة] ... فهو بواسطة الحروف المخلوقة والأصوات المخلوقة في الشجرة في تكليم موسى » [(٤)] .
وقرب منه كلام الكوثري (١٣٧٣ هـ) [(٥)] .

---

(١) الأسماء والصفات ، ص ١٩٠ .

(٢) راجع : الرد على الجهمية للإمام أحمد ، ص ١٣٠ ، والرد على الجهمية للدارمي ص ١٥٥ ، تحقيق : بدر البدر ، والإبانة للأشعري ص ٦٨ ، ٧٦ ، تحقيق فوقيه ، والاعتقاد للبيهقي ، ص ٩٥ – ٩٦، وفتح الباري (١٣/٤٥٥) .

(٣) كتاب التوحيد للماتريدي ، ص ٥٩ ، وشرح تأويلات الماتريدي السمرقندي في تفسير سورة الشورى رقم الآية ٥١ ، وإشارات المرام للبياضي ص ١٨١ – ١٨٢ ، وكبرى اليقينيات ، ص ١٣٢ .

(٤) إشارات المرام ، البياضي ، ص ١٨١ – ١٨٢ .

(٥) انظر تعليقات الكوثري على الأسماء والصفات ، ص ١٩٣ – ١٩٤ .

وقريب منه أيضًا كلام أبي المنتهى (كان حيًا ٩٣٩ هـ) الذي قال : « إن الله تعالى قال لموسى في الأزل بلا صوت ولا حرف : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه : ١٢] »[١] .

الوجه الثالث والعشرون : برهان الصوت :

وهو أنه قد تضافرت النصوص على إثبات الصوت لله تعالى كما أن أئمة السنة أعلام الأمة قد صرحوا بأن الله يتكلم بصوت ، فدل ذلك على أن الله تعالى يتكلم بكلام لفظي مسموع بحروف وصوت ، وكما أن الله تعالى ليس كمثله شيء كذلك ليس صفاته كصفات أحد ، وليس كلامه مثل كلام خلقه ، وكذلك ليس صوته كصوت أحد ، وأن الله تعالى قد تكلم بكلامه وصوته هو ، وسمعه جبريل وبلغه جبريل إلى النبي ﷺ ، ولكن لا بصوت الله بل بصوت جبريل نفسه ، وسمع النبي ﷺ كلام الله من جبريل ، وبلغ النبي ﷺ كلام الله تعالى لأمته ، ولكن لا بصوت الله ولا بصوت جبريل بل بصوت النبي ﷺ ، وسمع المسلمون كلام الله تعالى من النبي ﷺ بصوت النبي ﷺ لا بصوت الله ولا بصوت جبريل .

فالصوت صوت القارئ ، والكلام كلام الباري ، وإليك بعض النصوص في ذلك إتمامًا للحجة وإيضاحًا للمحجة :

النص الأول : حديث جابر مرفوعًا : « يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان »[٢] .

النص الثاني : أثر ابن مسعود : « إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء »[٣] وله ألفاظ أخرى .

---

(١) شرح الفقه الأكبر له ص ١١ .

(٢) رواه أحمد (٣/٤٩٥) والبخاري في الأدب المفرد : باب المعانقة ، ص ٣٢٦ ، وفي خلق أفعال العباد ، ص ١٤٩ ، والحاكم (٢/٤٣٧ – ٤٣٨) وغيرهم ، قلت : وهذا الحديث على أقل أحواله حسن .

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في السنة (١/٢٨١) والخلال في السنة ، كما في درء التعارض (٢/ ٣٨) .

النص الثالث : حديث أبي سعيد مرفوعًا : « يقول الله تعالى : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك ، فينادي [(١)] : بصوت ... » [(٢)] .

النص الرابع : قول البخاري أمير المؤمنين وإمام أهل السنة في وقته قال رحمه الله محتجًا بحديث الصوت السابق : « إن الله عز وجل ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، فليس هذا لغير الله جل ذكره » قال أبو عبد الله – يعني البخاري نفسه : وفي هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق ؛ لأن صوته جل ذكره يسمع عن بعد كما يسمع عن قرب ، وأن الملائكة يصعقون من صوته ، بخلاف صوت غيره .

انظر أيها المسلم إلى عقيدة الإمام البخاري ، فهذا الإمام يؤمن بالكلام اللفظي المسموع بحرف وصوت ، أم هو الكلام النفسي ؟؟!! فهل تعتقد اعتقاد البخاري أم تعتقد اعتقاد أصحاب الكلام النفسي .

النص الخامس : قول الإمام أحمد رحمه الله إمام أهل السنة ، قال عبد الله بن الإمام أحمد : سألت أبي عن قوم يقولون : « لما كلم الله عز وجل موسى لم يتكلم بصوت ، فقال أبي : بلى إن ربك عز وجل تكلم بصوت . هذه الأحاديث نرويها كما جاءت ، وقال أبي : هؤلاء كفار يريدون أن يموهوا على الناس » [(٣)] .

قلت : في هذا النص عبرة للفرقة الكلابية والماتريدية والأشعرية .

النص السادس : قال الإمام أبو بكر المروزي(٢٩٢ هـ) : « سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل ، وقيل له : « إن عبد الوهاب قد تكلم ، وقال : من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمي عدو الله وعدو الإسلام [(٤)] ، فتبسم أبو عبد الله وقال : ما أحسن ما قال عافاه الله تعالى » .

---

(١) بصيغة المعلوم ، بكسر الدال مضبوطًا للأكثر ، راجع : الفتح (٤٦١/١٣) .

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد (٢٧٢٠/٦) ، وفي خلق أفعال العباد ، ص ١٥٠ ، وقد طعن فيه بعض المؤولين ، ولكن الحافظ وقف لهم بالمرصاد ، فرد كيدهم في نحورهم ، انظر : الفتح (٤٦٠/١٣) .

(٣) رواه في كتاب السنة (٢٨٠/١) ، ورواه الخلال عن الإمام أحمد في كتابه السنة ، كما في درء التعارض (٣٨/٢) .

(٤) رواه الخلال في كتاب السنة له كما في درء التعارض (٣٨/٢ – ٣٩) .

النص السابع : قال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل ، قلت لأبي : إن ههنا من يقول : « إن الله لا يتكلم بصوت ، فقال : يا بني هؤلاء جهمية زنادقة ، إنما يدورون على التعطيل » وذكر الآثار في خلاف قولهم [١] .

النص الثامن : قال الإمام أبو نصر الوائلي السجزي الحنفي (٤٤٤ هـ) : « وليس في وجود الصوت من الله تشبيه بمن يوجد الصوت منه من الخلق ، كما لم يكن في إثبات الكلام له تشبيه بمن له الكلام من خلقه ، وقال : « ليس ذلك عن جارحة وآلة ، وكلامنا حروف وأصوات لا يوجد منا إلا بآلة » [٢] .

النص التاسع : قال شيخ الإسلام رحمه الله : « وهذا الصوت الذي تكلم الله به ليس هو الصوت المسموع عن العبد ، بل ذلك هو صوته كما هو معلوم لعامة الناس ، وقد نص على ذلك الأئمة أحمد وغيره ، فالكلام المسموع منه هو كلام الله لا كلام غيره » [٣] .

قلت : فإذا تكلم العباد بالقرآن فأصواتهم مخلوقة ، والمقروء المتلو القرآن كلام الله على الحقيقة ، لا كلام العباد ، بل هو كلام رب العباد ، إذ ينسب كل كلام إلى قائله ، إن كان نثرًا فإلى ناثره ، وإن كان شعرًا فإلى شاعره ، حتى باعتراف الماتريدية والأشعرية ، أما القائل الثاني فهو مبلغ لقول القائل الأول ، ومؤد لكلام المتكلم الأول وناقل له ، وهذه حقيقة اعترف بها هؤلاء المتكلمون القائلون بالكلام النفسي ، فالقرآن نفسه في الكتاب المكنون ، وهو نفسه في المصاحف ، وهو نفسه ما نقرأه ، وهو نفسه حينما كان الله تكلم به ، فلا يخرج القرآن عن أن يكون كلام الله تعالى على الحقيقة ، وأنه غير مخلوق ، وليس هذا كذكر الأعيان باللسان كما زعمته الماتريدية تمويهًا وتدليسًا وتلبيسًا [٤] .

---

(١) عزاه شيخ الإسلام إلى كتاب السنة لعبد الله بن أحمد ، انظر : مجموع الفتاوى (١٢/٣٦٨) ، ولم أجده في كتاب السنة المطبوع بطبعتيه .

(٢) درء التعارض (٢/٩٣) عن كتاب الإبانة للسجزي .

(٣) درء التعارض (٢/٤٠) .

(٤) انظر : التمهيد للنسفي (٧/أ) والعقيدة للنسفي (٧/ب) ، وشرح العقائد النسفية ، ص ٩٥ ، والنبراس ص ٢٢٦ ، وتعليقات الكوثري على الأسماء والصفات ، ص ٢٥٥ .

فإن الفرق بين ذكر الأعيان باللسان وبين المتكلم بالقرآن شاسع ، والبون واسع[(١)] ، لأن من تلفظ بالنار لا يحترق لسانه ، لأنه لم يتناول جمرة النار ، بل ذكر اسم النار على لسانه ، بخلاف من تلفظ بكلام الله ، فإنه قد أدى كلام الله على الحقيقة ، وليس هذا قول بالحلول كما زعمته دهماء المتكلمين .

النص العاشر : قال شيخ الإسلام معلقًا على قول البخاري ومؤيدًا له ، ومحققًا لصفة الصوت في كلام الله تعالى ، ومبينًا أن صوت الله تعالى لا يشبه أصوات خلقه كما أن كلام الله لا يشبه كلام خلقه : « وبين البخاري الفرق بين الصوت الذي ينادي الله به ، وبين الصوت الذي يسمع من العباد ، وأن الصوت الذي تكلم الله به ليس الصوت المسموع من القارئ ، وبين دلائل ذلك ، وأن أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة ، والله تعالى بفعله وكلامه غير مخلوق »[(٢)] .

النص الحادي عشر : قال شيخ الإسلام أيضًا : « وقد علم أن عدم الفرق والمباينة بين الخالق وصفاته والمخلوق وصفاته خطأ وضلال ، لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد ومتفقون على أن الله تكلم بالقرآن الذي أنزل على نبيه ﷺ حروفه ومعانيه ، وأنه ينادي عباده بصوته ، ومتفقون على أن الأصوات المسموعة من القراء أصوات العباد ، وعلى أنه ليس شيء من أصوات العباد ولا مداد المصاحف قديمًا »[(٣)] .

النص الثاني عشر : قال شيخ الإسلام أيضًا : « والله تكلم بالقرآن حروفه ومعانيه بصوت نفسه ، ونادى موسى بصوت نفسه ، كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف .

وصوت العبد ليس هو صوت الرب ولا مثل صوته ، فإن الله ليس كمثله شيء

---

(١) راجع : التحقيق في مجموع الفتاوى (٣٨٢/١٢ - ٣٩١ ، ٥٦٤ - ٥٦٦) ، وتأويل مختلف الحديث ، ص ٢٠٢ .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٦٥/١٢) .

(٣) مجموع الفتاوى (٥٨٥/١٢ - ٥٨٦) .

لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وقد نص أئمة الإسلام أحمد ومن قبله على ما نطق به الكتاب والسنة من أن الله ينادي بصوت ، وأن القرآن كلامه تكلم به بحرف وصوت ، ليس منه شيء كلامًا يقرأه لا جبريل ولا غيره ، وأن العباد يقرؤونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم ، فالصوت المسموع من العبد صوت القارئ ، والقرآن كلام الباري » (١) .

الوجه الرابع والعشرون : برهان صفة تكلم الله تعالى بهذا القرآن :

وهو أنه قد تقدمت عدة نصوص صريحة لأئمة السنة على أن الله تعالى قد تكلم بهذا القرآن العربي اللفظي على الحقيقة بحروفه وصوته ، فالله تعالى متكلم بالقرآن تكلم بهذا القرآن ، لأن هذا القرآن كلمه الذي تكلم به على الحقيقة فثبت منه أن كلام الله تعالى كلام حقيقي لفظي مسموع ، وليس كلامه كلامًا نفسيًا ، ويؤكد ذلك نص عائشة بنت الصديق أم المؤمنين المبرأة من فوق سبع سماوات ، حيث قالت في قصة الإفك الطويلة ضمن حديث طويل معروف : « ولأنا أحقر في نفسي عن أن يتكلم بالقرآن من أمري » (٢) .

وفي لفظ : « ... من أن يتكلم الله فيّ بأمر » (٣) . وفي لفظ : « .... من أن يتكلم فيّ بأمر يتلى » (٤) .

قلت : « هذه الآثار السلفية صريحة في أن الله تعالى قد تكلم بهذا القرآن العربي الملفوظ المسموع ، وأن كلام الله تعالى هو الكلام اللفظي المسموع .

الوجه الخامس والعشرون : برهان المناداة :

وهو [أن نصوص الكتاب والسنة قد استفاضت ، بل تواترت على أن الله تعالى

---

(١) مجموع الفتاوى (٥٨٤/١٢ - ٥٨٥) .

(٢) رواه البخاري في الشهادات ، باب تعديل النساء ، الفتح (٣٢١/٥) .

(٣) رواه البخاري في المغازي ، باب حديث الإفك (١٥٢١/٤) .

(٤) رواه البخاري في تفسير سورة النور ، باب لولا إذا سمعتموه (٧٧٧/٤) .

قد نادى بعض عباده من الملائكة والأنبياء ، وينادي عباده ، فقد قال سبحانه : ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] وقال تعالى : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ [الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥] وقال جل وعلا : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ [الشعراء : ١٠] ، وقال سبحانه : ﴿ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص : ٤٦] : وقال تعالى : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ [مريم : ٥٢] وقال عز اسمه : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ [القصص ، الآيات : ٢٦ ، ٦٥ ، ٧٤ ، وسورة فصلت : ٧] إلى غيرها من الآيات الكريمات التي تدل على أن الله تعالى نادى وينادي بعض عباده .

ولا شك أن النداء في اللغة والشرع والعرف كلام لفظي مسموع ليس إلا ، فدلت هذه النصوص على أن الله تعالى يتكلم بكلام لفظي مسموع بحرف وصوت . كما تدل على إبطال الكلام النفسي دلالة قاطعة . وقد استدل أئمة السنة وأعلام هذه الأمة من السلف على إثبات الكلام اللفظي المسموع وسماعه بحرف وصوت بنصوص مناداة الله تعالى بعض عباده .

ولا شك أن النداء في اللغة والشرع والعرف كلام لفظي مسموع ليس إلا فدلت هذه النصوص على أن الله تعالى يتكلم بكلام لفظي مسموع بحرف وصوت ، كما تدل على إبطال الكلام النفسي دلالة قاطعة ، وقد استدل أئمة السنة وأعلام هذه الأمة من السلف على إثبات الكلام اللفظي المسموع وسماعه بحرف وصوت بنصوص مناداة الله تعالى بعض عباده .

وإليك بعض نصوص الأئمة على ذلك :

١ - قال الإمام **أبو نصر الوائلي السجزي** الحنفي رحمه الله : « وقد بين في كتابه ما لا إشكال بعده في هذا الفصل لما قال : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ [الشعراء : ١٠] والعرب لا تعرف النداء إلا صوتًا ، وقد جاء عن موسى ذلك ، فإن أنكروا الظاهر كفروا ، وإن قالوا : إن النداء غير صوت خالفوا لغات العرب وإن قالوا نادى الأمير إذا أمر غيره بالنداء ، رفعوا فضيلة موسى عليه السلام المختصة به من تكليم الله إياه بذاته من غير واسطة ولا ترجمان ... » (١) .

---

(١) درء التعارض (٩٣/٢) عن كتاب الإبانة للسجزي .

٢ - وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بعدما استدل بنصوص النداء على صوت الله تعالى : « النداء في لغة العرب هو صوت رفيع لا يطلق النداء على ما ليس بصوت حقيقة ولا مجازًا » ثم ذكر سماع موسى عليه السلام لكلام الله تعالى [١] .

قلت : لقد صدق شيخ الإسلام ، وقبله أبو نصر الوائلي الإمام فقد صرح أئمة اللغة العربية بأن النداء صوت ، بل صوت رفيع ، بل صوت أرفع [٢] .

الوجه السادس والعشرون : برهان « كن » :

وهو أن الله تعالى قد قال : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤] والآيات في ذلك كثيرة في هذا المعنى [٣] فهذه النصوص تدل على أن الله يتكلم بكلمة « كن » ويقولها ، فثبت أن كلام الله تعالى حرف وصوت ، ولكن هؤلاء الماتريدية والأشعرية ينكرون ذلك ، وقالوا في معارضة الله تعالى : إن الله تعالى لا يقول كلمة « كنْ » فليس من الله أن يقول « كن » [٤] وقالوا : إنما المراد مجاز وتمثيل سرعة التكوين [٥] .

قلت : هذه المقولة إنكار كلمة « كن » تعطيل بواح .

قال الإمام أبو نصر الوائلي الحنفي السجزي في الرد على الأشعرية والماتريدية مبطلاً مقالتهم في بدعة الكلام النفسي : « فإن ارتكبوا العظمى وقالوا : كلام الله شيء واحد على أصلنا لا يتجزأ وليس لغة ، والله سبحانه من الأزل إلى الأبد متكلم بكلام واحد لا أول له ولا آخر ... قيل لهم : قد بينا مرارًا كثيرة أن قولكم في هذا الباب فاسد ، وأنه مخالف للعقليين والشرعيين جميعاً ، وأن نص الكتاب والثابت عن

---

(١) مجموع الفتاوى (٥٣٠/٦ - ٥٣١) .

(٢) انظر : جمهرة اللغة (٢٤٥/٣) ، والصحاح (٥/٦ ، ٢٥) ، والمفردات ، ص ٤٨٦ ، واللسان (٢١٥/١٥) ، والقاموس ، ص ١٧٤٢ ، وتاج العروس (٢٣٣/٢٠) .

(٣) انظر : سورة البقرة الآية ١١٧ ، وسورة آل عمران ٤٧ ، وسورة الأنعام ٧٣ ، وسورة مريم ٣٥، وسورة يس ٨٢ ، وسورة غافر ٦٨ .

(٤) انظر : تأويلات الماتريدي (٢٦٨/١) .

(٥) انظر : بحر العلوم للسمرقندي (٤٦٥/١) ، والمدارك (٨٣/١) ، وإشاد العقل السليم (١/ ٥١)، وكشف الأسرار (١١٢/١ - ١١٣) .

الأثر قد نطقا بفساده ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] فبين الله أنه يقول للشيء : كن إذا أراد كونه فعلم بذلك أنه لم يقل للقيامة بعد كوني ، فبين الله جل وجلاله أنه قال لآدم بعد خلقه من تراب : كن ، وأنه إذا أراد شيئًا يقول له : كن فيكون » [١] .

وللإمام أبي الحسن الأشعري كلام متقن وحجج عقلية وبراهين سمعية قاطعة لدابر هؤلاء المنكرين لقول الله تعالى : كن ، وفي ذلك كلام لأهل العلم أيضًا معروف [٢] .

الوجه السابع والعشرون : برهان النوع والأفراد :

وهو أن نصوص الكتاب والسنة قد تواترت واستفاضت على أن الله تعالى لم يزل متكلما ولا يزال متكلمًا ويكلم من شاء من عباده متى شاء ، وله سبحانه وتعالى كلام قد تكلم به في الماضي ، كما أن له سبحانه كلام لم يتكلم به بعد وسيتكلم به متى شاء ، فقد قال رسول الله ﷺ : « ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ... » [٣] .

وقال ﷺ : « إذا كان يوم القيامة جعل الله السماوات على إصبع والأرضين على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يهزهن ثم يقول : أنا الملك أنا الملك ... » [٤] .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في تحقيق أن الله سيتكلم شيئًا فشيئًا ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ [ق : ٣٠] : « ومحال أن يقول سبحانه لجهنم : هل امتلأت ، وتقول : هل من مزيد قبل خلقها ووجودها » [٥] .

---

(١) درء التعارض (٢/٨٧ - ٨٨) عن كتاب الإمام الوائلي السجزي .

(٢) فراجع وانظر : الإبانة ، ص ٦٥ - ٦٦ ، تحقيق : فوقيه ، وص ٥٢ - ٥٣ ، تحقيق : الأرناؤوط ، ط دار البيان ، وص ٨٦ - ٨٨ طبعة الجامعة .

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب : كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم) عن عدي ابن حاتم رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب كلام الرب يوم القيامة ، عن ابن مسعود .

(٥) مختصر الصواعق ، ص ٤٣٠ .

أقول : قد دلت هذه النصوص على أن كلام الله تعالى ليس أمرًا أزليًا فقط ، بحيث لا يتجزأ ولا يتبعض ، كما يقوله أصحاب الكلام النفسي ، فإن هذا محال بل الحق أن كلامه تعالى منه كلام في جانب الماضي ، ومنه ما سيكون كاملاً في جانب المستقبل ، فالله تعالى سيتكلم بكلام لم يتكلم به بعد ، فبطل الكلام النفسي الذي لم يتجزأ ، وثبت الكلام اللفظي الذي له أبعاض وأجزاء ، فالله تعالى لم يزل متكلمًا ولا يزال متكلمًا بمشيئة ، فنوع الكلام قديم ، وأفراده تتجدد بمشيئة الله وقدرته وإرادته سبحانه وتعالى ، وهذه قاعدة في جميع الصفات الفعلية حيث أن أنواعها قديمة وأفرادها متجددة » [١] .

وليس المراد من التجدد أنها مخلوقة معاذ الله من ذلك ؛ لأن الله تعالى بصفاته وأفعاله وأسمائه خالق ، وما سواه من مفعولاته كلها مخلوقة ، ولا يلزم عن تجدد الأفراد حدوث الأنواع ، فإن حكم الأفراد قد يختلف عن حكم الأنواع ، ألا ترى أن نوع نعيم الجنة باق لا ينفذ مع أن آحادها وأفرادها يأكلها أهل الجنة .

وهكذا أجزاء الطويل والعريض لا يلزم أن تكون طويلة وعريضة [٢] .

الحاصل : أن نصوص الشرع دالة على أن بعض كلام الله تعالى سيتكلم به سبحانه فيما لا يزال ، فهذا رد على أهل الكلام النفسي .

الوجه الثامن والعشرون :

وهو أن الإمام ابن القيم قد صرح بأن نصوص كلام الله تعالى قد تنوعت وتواترت وتضافرت ، ثم ساق عدة من النصوص ، وكلها تدل على الكلام الحقيقي اللفظي المسموع ، ثم قال : « إلى أضعاف أضعاف ذلك من نصوص الكتاب والسنة التي إن وقعت دفعت الرسالة بأجمعها ، وإن كانت مجازًا كان الوحي كله مجازًا ،

---

(١) راجع : درء التعارض (١١٥/٥ - ١٢١) ، وجامع الرسائل (١٠/٢ - ١٦) ، وضمن مجموع الفتاوى (٢٢٢/٦ - ٢٢٧) .

(٢) راجع : منهاج السنة (١١٨/١ - ١١٩) ط القديمة ، و (٤٢٦/١ - ٤٣٢) الطبعة المحققة ، ودرء التعارض (١٥٨/٨ - ١٥٩) .

وإن كانت من المتشابه كان الوحي كله من المتشابه ، وإن وجب أو ساغ تأويلها على خلاف ظاهرها ساغ تأويل جميع القرآن والسنة على خلاف ظاهرها ، فإن مجيء هذه النصوص في الكتاب وظهور معانيها وتعدد أنواعها واختلاف مراتبها أظهر من كل ظاهر ، وأوضح من كل واضح فكم جمعه ما يبلغ التأويل والتحريف والحمل على المجاز ؟؟!!

هب أن ذلك يمكن في موضع أو اثنين أو ثلاثة أو عشرة ؟؟ أفيسوغ حمل أكثر من ثلاثة وأربعة آلاف موضع كلها على المجاز ؟؟!! وتأويل الجميع يخالف الظاهر ؟؟!

ولا تستبعد قولنا : « أكثر من ثلاثة آلاف » فكل آية وكل حديث إلهي وكل حديث فيه الإخبار عما قال الله تعالى أو يقول ، وكل أثر فيه ذلك إذا استقرئت زادت على هذا العدد ، ويكفي أحاديث الشفاعة ، وأحاديث الرؤية ، وأحاديث الحساب ، وأحاديث تكليم الله لملائكته وأنبيائه ورسله وأهل الجنة ، وأحاديث تكليم كافة عباده يوم القيامة بلا ترجمان وبلا واسطة وأحاديث تكليمه للشفاعة يوم القيامة حين يأذن لهم في الشفاعة إلى غير ذلك ، إذ كل هذا وأمثاله وأضعافه مجاز لا حقيقة له ؟؟!! سبحانك هذا بهتان عظيم » [١] .

الوجه التاسع والعشرون :

إن قولهم بالكلام النفسي وأن القرآن الذي بين أيدينا ألفاظه وحروفه مخلوقة خلقها الله في غيره ، يلزم من هذه المقالة الشنيعة أن يجعل كل كلام خلقه الله في غيره هو كلام الله !! وهذا ما ألزم به عبد العزيز الكناني بشرًا المريسي في حضرة المأمون [٢] .

(١) مختصر الصواعق (٢/٢٩٧ - ٢٩٨) ط القديمة ، وص ٤٣٠ - ٤٣١ ، الطبعة الجديدة ودار الندوة ص ٤٧٩ - ٤٨٠ ، تحقيق : سيد بن إبراهيم ، وص ٤١٥ ط دار الكتاب .

(٢) راجع : شرح الطحاوية ، ص ١٧٢ ، ط : المكتب الإسلامي .

المبحث الثاني

نقض حجج وشبهات من قال بالكلام النفسي

استدل من يقول بالكلام النفسي بأدلة من القرآن والسنة واللغة وإليك تلك الأدلة :

أولاً : الأدلة من القرآن :

١ - قول الله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [المجادلة : ٨] .

٢ - وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] .

٣ - وقوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الملك : ١٣] فسمى الإسرار قولاً .

٤ - وقوله تعالى : ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عـمران : ٤١] .

ثانيًا : الأدلة من السنة :

قول النبي ﷺ : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي » (١) فأثبت الذكر للنفس والذكر والقول والكلام واحد ، فعلم أن حقيقة الكلام المعنى القائم بالنفس (٢) .

ثالثًا : الأدلة من آثار السلف :

قول عمر رضي الله عنه : « زورت في نفسي مقالة أردت أن أقولها » (٣) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) انظر : الإنصاف للباقلاني ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الحدود ، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت ، حيث ساق حديث السقيفة بطوله ، ورقمه ٦٨٣٠ ، الفتح (١٢/١٤٤ - ١٤٥) .

رابعًا : الأدلة من اللغة :

احتجوا ببيت للأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

واحتجوا كذلك بأن العربي يقول : كان في نفسي كلام ، وكان في نفسي قول ، وكان في نفسي حديث .

هذه هي أدلتهم على القول بالكلام النفسي ، وقد ناقش شيخ الإسلام هذه الحجج وبين أن لا دليل فيها ، وأنا أذكر ملخص ما أجاب به رحمه الله عن تلك الحجج ، وذلك كما يلي :

أولاً : ما استدلوا به من القرآن :

١ - استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة : ٨] عنه جوابان :

أحدها : أن المراد أنهم قالوه بألسنتهم سراً ، وحينئذ فلا حجة لهم فيه ، وهذا هو الذي ذكره المفسرون ، حيث كانوا يقولون : سام عليك ، فإذا خرجوا يقولون في أنفسهم ، أي يقول بعضهم لبعض : لو كان نبيًا عذبنا بقولنا له ما نقول [١] .

الثاني : أنه قيده بالنفس ، وهذا على أن المقصود أنهم قالوه بقلوبهم ، وإذا قيد القول بالنفس كان دلالة المقيد خلاف دلالة المطلق ، والدليل قول النبي ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم أو تعمل » [٢] .

وهذا رد عليهم مطلقًا لأنه قال : (ما لم تتكلم) فدل على أن حديث النفس ليس هو الكلام المطلق .

٢ - وأما قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف :

---

(١) انظر : الإيمان ، ص ١٢٩ ط المكتب الإسلامي ، ومجموع الفتاوى (٣٥/١٥) .

(٢) أخرجه البخاري : كتاب الأيمان والنذور ، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان ورقمه ٦٦٦٤ الفتح (٥٤٨/١١ - ٥٤٩) ، ومسلم ، كتاب الأيمان : باب تجاوز الله عن حديث النفس ، ورقمه ١٢٧ .

٢٠٥] فالمقصود الذكر باللسان ؛ لأنه قال ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ ﴾ ومن استقراء النصوص يتبين أن الذي يقيد بالنفس لفظ الحديث ، مثل الحديث السابق ، و (ما حدثت به أنفسها) أما لفظ (الكلام) فلم يعرف أنه أريد به ما في النفس فقط [١] .

٣ – أما قوله : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ﴾ [الملك : ١٣] واحتجاجهم على أن القول المسر في القلب دون اللسان لقوله تعالى في آخر الآية : ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فهذه حجة ضعيفه جدًا ، لأن قوله : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ﴾ يبين أن القول يسر به تارة ، ويجهر به أخرى ، وهذه إنما هو فيما يكون في القول الذي هو بحروف مسموعة ، وقوله بعد ذلك : ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، فإنه إذا كان عليمًا بذات الصدور ، فعلمه بالقول المسر ، والمجهور به أولى » [٢] .

٤ – أما قوله تعالى ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عمران : ٤١] ، وفي مريم : ﴿ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم:١٠] و (لم يستثن شيئًا والقصة واحدة ، وهذا يدل على أن الاستثناء منقطع ، والمعنى : آيتك ألا تكلم الناس ، لكن ترمز لهم رمزًا) [٣] .

ثانيًا : الجواب عما استدلوا به من السنة :

أما ما احتجوا به من القول النبي ﷺ في الحديث السابق فليس واردًا في محل النزاع ؛ لأن الخلاف بين أهل السنة وبين الأشاعرة ، أنما هو في مسمى القول لا بقيام المعاني في القلب ، فإن أهل السنة والجماعة يقرون بأن حديث النفس قد يسمى كلامًا وقولًا ، ولكن بقرينة تبين ذلك ، وأما مطلق الكلام و القول فإنه يعم الألفاظ والمعاني مجتمعه [٤] .

---

(١) انظر : الإيمان ، ص ١٣٠ .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٦/١٥) ، وانظر : الإيمان ، ص ١٣٠ .

(٣) الإيمان ، ص ١٣١ .

(٤) انظر : كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية ، ص ٣٥١ .

ثالثًا : أما احتجاجهم بأثر عمر في قصة السقيفة (زورت في نفسي مقالة) فهي حجة عليهم ، لأن التزوير إصلاح الكلام و تهيئته ، (فلفظها يدل علي أنه قدر في نفسه ما يريد أن يقوله ولم يقله ، فعلم أنه لا يكون قوّلا إلا إذا قيل باللسان ، وقبل ذلك لم يكن قوّلا ، ولكن كان مقدرًا في النفس ، يراد أن يقال ، كما يقدر الإنسان في نفسه أن يحج وأن يصلي ، وأن يسافر إلى غير ذلك ، فيكون لما يريده من القول والعمل صورة ذهنية مقدرة في النفس ، ولكن لا يسمى قولاً وعملاً إلا إذا وجدت في الخارج ... » [١] .

وهذا يدل عليه الحديث السابق : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل » .

رابعًا : الجواب عما احتجوا به من اللغة :

فأما احتجاجهم بالبيت المنسوب للأخطل ، ففيه ما فيه من ناحية صحة نسبته إليه حتى ألفاظ البيت حرفت لتوافق مقصود من استشهد به من أهل الكلام ، وقد تعجب شيخ الإسلام من هؤلاء الذين يحتجون بهذا البيت الذي قاله نصراني ولم يثبت عنه ، فقال : « ولو احتج محتج في مسألة بحديث أخرجاه في الصحيحين عن النبي ﷺ لقالوا : هذا خبر واحد ، ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول ، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله بإسناد صحيح لا واحد ولا أكثر من واحد ، ولا تلقاه أهل العربية بالقبول ، فكيف يثبت به أدنى شيء من اللغة ، فضلاً عن مسمى الكلام [٢] وقد أطال شيخ الإسلام في المناقشة بما يشفي ويكفي [٣] .

وأما احتجاجهم بقول العربي : (كان في نفسي كلام) ونحو ذلك ، فإننا لا نخالف في صحته ، لكن ليس على مرادكم – معشر الأشعرية – وإنما على مرادنا من كون لفظ (الكلام) إذا جاء مقيدًا ، كان التقييد قرينة دالة على إخراجه عن

---

(١) الإيمان ، ص ١٣١ – ١٣٢ ، ط المكتب الإسلامي .

(٢) الإيمان ، ص ١٣٢ .

(٣) المصدر السابق ، ١٣٢ – ١٣٤ .

إطلاقه ، ونحن نقر أنه قد تراد به المعاني أو الألفاظ بالقرائن ، فلما قيده العربي ههنا بالنفس وأخرجه من مطلق الكلام ، فكيف يصح لكم - معشر الأشعرية - أن تحتجوا بما هو مجاز على قواعدكم لتقرير ما هي الحقيقة ؟ وذلك أنكم تقولون ما تصرفه القرائن عن حقيقته إنما هو المجاز (١) .

هذه أظهر حججهم في هذه المسألة والجواب عليها ، وبالله التوفيق .

* * *

(١) العقيدة السلفية في كلام رب البرية ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ .

كتاب

الماتريدية ربيبة الكلابية

بقلم الدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن ولاه .

أما بعد :

بعد الإنتهاء من الحوار مع أشعرى رأيت من المناسب التعريف بأشقاء الأشعرية وهم الماتريدية إذ إن الماتريدية والأشعرية أخذتا أصولهما من الكلابية وإليك بيان ذلك .

الماتريدية ربيبة الكلابية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :

الماتريدية التي تنسب إلى أبي منصور الماتريدي ما هي إلا نتاج من أفكار الكلابية . وإليك التفصيل :

(أ) التعريف :

الماتريدية فرقة كلامية تنسب إلى محمد بن محمد بن محمود بن محمد الماتريدي ، أبي منصور الحنفي السمرقندي .

والماتريدي نسبة إلى (ماتريد) بفتح الميم وسكون الألف وضم التاء الفوقانية المثناة وكسر الراء المهملة وسكون الياء ودال مهملة ، وهي محلة من سمرقند [(١)] ، ولم يعرف تاريخ مولده على وجه الدقة ، وإن كان المرجح أنه حول عام (٢٣٨ هـ) .

واشهر مؤلفاته :

(١) كتاب التوحيد .

(٢) تأويلات أهل السنة .

واشهر شيوخه :

(١) محمد بن مقاتل الرازي المتوفى سنة (٢٤٨ هـ) .

(٢) نصير بن يحيى ، ويقال نصر بن يحيى البلخي المتوفى سنة (٢٦٨ هـ) .

(٣) أبو بكر أحمد بن إسحاق بن صبيح الجوزجاني ثم البغدادي الحنفي .

---

(١) الأنساب (٢/١٢) ، والفوائد البهية (١٩٥) .

(٤) أحمد بن العباس بن الحسين بن جبلة السمرقندي أبو نصر العياضي المتوفى في الثلث الأول من القرن الرابع .

وأشهر تلاميذه :

(١) أبو القاسم إسحاق بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الحكيم السمرقندي المتوفى سنة (٣٤٢ هـ) .

(٢) أبو محمد عبد الكريم بن موسى بن عيسى البزدوي (٣٩٠ هـ) .

(٣) أبو الحسن علي بن سعيد الرُسْتُغْفَني .

(٤) أبو عصمة بن أبي الليث البخاري .

وقد توفي أبو منصور الماتريدي عام (٣٣٣ هـ) كما ذكر عامة المؤرخين له [١] .

(ب) النشأة والتطور :

أولاً : النشأة : نشأت فرقة الماتريدية على يد أبي منصور الماتريدي والذي تنسب إليه كما تقدم ، ولم يكن هناك من أصل لهذه التسمية قبل الماتريدي ، ولا نعرف هل ظهرت هذه النسبة إليه في حياته أم بعد وفاته ؟ وقد تأثر الماتريدي ولا شك بالحنفية من الجهمية والمعتزلة والمرجئة أكثر مما تأثر بالحنفية السنية السلفية ، فجنى عليه هؤلاء ، فيما أثر هو في أتباعه الماتريدية ، وجنى عليهم كذلك .

ويبدو أن لا وجود للماتريدية بصورة فرقة إلا بعد وفاة إمامهم الماتريدي ؛ لأن الفرقة تتكون من مجموعة تلامذته .

وقد أثر الماتريدي في الحنفية في سمرقند تأثيرًا بالغاً ، حتى أصبح غالب الحنفية من الماتريدية .

---

(١) انظر : أصول الدين للبزدوي (ص ٢، ٣، ٢٠٤ ، ٢٤١) ، الجواهر المضيئة لعبد القاهر القرشي (٣٦/٣) ، الخطط للمقريزي (٣٥٩/٢) ، كشف الظنون (١١٠/١ ، ١١١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦) و (٢/ ١٤٠٦ ، ١٤٠٨ ، ١٥٧٣ ، ١٧٨٢) ، الأعلام (١٩/٧) ، معجم المؤلفين (٣٠٠/١١) وغيرها .

ثانياً : التطور : لقد مرت الماتريدية بعدة أدوار تاريخية أهمها ما يلي :

(١) دور التأسيس ووضع الأصل : وهذا كان مرتبطاً بحياة الماتريدي ما بين عامي (٢٣٨ - ٣٣٣ هـ) ، وقد تميز هذا الدور بكثرة المساجلات بين الماتريدي وبين المعتزلة .

(٢) دور التكوين : وقد ارتبط هذا الدور بتلاميذ الماتريدي ، ويمتد منذ وفاة الماتريدي إلى نحو عام (٤٠٠ هـ) ، حيث انتشر تلاميذ الماتريدي ، وبدأوا في نشر كلامه وأفكاره والانتصار لها والدفاع عنها .

(٣) دور الانتشار : وقد ارتبط ذلك بظهور أشخاص أكثروا من التأليف والكتابة عن الماتريدي وأفكاره وأصوله والانتصار لها ، ويمكن اعتبار هذا الدور ممتدًا ما بين عام ٤٠٠ هـ حتى يومنا هذا ، وقد ظهر فيه أمثال أبي اليسر البزدوي (٤٩٣ هـ) ، وازداد انتشارها على يد أبي المعين النسفي (٥٠٨ هـ) ، ونجم الدين عمر النسفي (٥٣٧ هـ) ، وحافظ الدين عبد الله النسفي (٧١٠ هـ) . وهذا الدور كان من أهم أدوار الماتريدية ، وشهد مناظرات بين الماتريدية والأشعرية ، وخصوصًا عند نور الدين أحمد بن محمد الصابوني (٥٨٠ هـ) .

وكذلك فقد شمل هذا الدور فترة الحكم العثماني بكاملها والتي شهدت تمكنًا وتسلطاً من الماتريدية على عموم الوظائف الدينية في ولايات الدولة العثمانية ، وكذلك شهد انتشار مذهب الماتريدية في كثير من البلاد الإسلامية ، وشهد ظهور كثير من أعلام الماتريدية كالتفتازاني والجرجاني وابن الهمام ومرورًا بمحمد قاسم الديوبندي وأحمد رضا البريلوي ثم الكوثري الماتريدي وغيره .

وقد شهد هذا الدور كذلك هجوماً شديداً من الماتريدية على أصحاب العقيدة السلفية ووصفهم لهم بأشنع الأوصاف وأقبحها ، وخصوصًا بعد انتشار الدعوة السلفية - التي أطلقوا عليها تشنيعاً اسم الوهابية - في الجزيرة العربية [١] .

---

(١) للاستزادة حول هذه الأدوار ، راجع كتاب : الماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات ، للشمس السلفي الأفغاني (ص ٢٦٢) .

(ج) مصادر التلقي :

ترى الماتريدية أن مصدر التلقي الأول في معظم أبواب التوحيد هو العقل دون النقل ؛ وذلك لأن الأدلة العقلية عندهم قطعية [١] ، أما السمعية فإنها - بزعمهم - ظواهر ظنية [٢] . وقد قسموا أصول الدين إلى عقليات وسمعيات ، فمصدر التلقي في العقليات هو العقل ، وهو الأصل ، والنقل تابع له ، ويشمل هذا معظم أبواب التوحيد والصفات .

وأما السمعيات فمصدر التلقي فيها هو النقل ، والعقل تابع له ، وتشمل أمورًا : كعذاب القبر والصراط وأحوال الآخرة . وأما إذا قدر تعارض بين الأدلة العقلية والسمعية - يعني في أبواب التوحيد - فإنهم يقدمون الأدلة العقلية التي هي عندهم قطعية ، وأما السمعية فعندهم مصيرها التأويل والتحريف أو النفي ؛ لأنها إنما هي ظنية بزعمهم [٣] .

قال الزبيدي عند كلامه عن صفتي الاستواء والنزول حيث أراد وضع قانون كلي لإبطال تلك الصفات فقال : « وأجيب عنه بجواب إجمالي ، وهو كالمقدمة للأجوبة التفصيلية ، وهو أن الشرع إنما ثبت بالعقل ... فلو أتى الشرع بما يكذبه العقل وهو شاهده لبطل الشرع والعقل معًا ، إذا تقرر هذا فنقول : كل لفظ في الشرع ... وهو مخالف للعقل ... إما أن يتواتر أو ينقل آحادًا ، والآحاد إن كان نصًا لا يحتمل التأويل قطعنا بافتراء ناقله أو سهوه أو غلطه ، وإن كان ظاهرًا فظاهره غير مراد ، وإن كان متواترًا فلا يتصور أن يكون نصًا لا يحتمل التأويل ، بل لابد وأن يكون ظاهرًا ... » [٤] .

---

(١) إشارات المرام (ص ١٨٩،١٩٩) ، شرح العقائد النسفية (ص ٤٢،٥) ، نشر الطوالع (ص ٢٢٢) .

(٢) حاشية عبد الحكيم على الخيالي (ص ١٨٤) مع المصادر السابقة .

(٣) إشارات المرام (ص ١٩٩) ، شرح العقائد النسفية (ص ٤٢) ، نشر الطوالع (ص ٢٢٨) ، المسايرة (ص ٣٢،٣٥) .

(٤) شرح الإحياء للزبيدي الحنفي الماتريدي (٢/١٠٥ ، ١٠٦) ، وانظر أصل هذا القانون الكلي في تبصرة الأدلة (ص ٥٤) ، والنور اللامع (ص ٨٠ - ٨١خ) ، وكذلك شرح المقاصد للتفتازاني (٢/ ٥٠) الطبعة التركية ، وشرح المواقف للجرجاني (٢/٥٦ - ٥٧) .

والقاعدة عندهم : أن كل نصٍ إذا أخبر به الصادق وهو أمر ممكن ولم يكن مخالفاً فلا يؤول ، كالبعث والنشر ونعيم الجنة وعذاب النار ، أما إذا كان نصاً دالاً على أمر محال مخالف للعقل - بزعمهم - فلابد من تأويله ، كعلو الله تعالى واستوائه على عرشه ، ونزوله في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا (١) .

ويقولون : إن النصوص إذا كانت خلاف العقل ، فإن كانت متواترة فهي وإن كانت قطعية الثبوت لكنها ظنية الدلالة ، فالعقل مقدم عليها ؛ فلذلك الأدلة النقلية تؤول أو تفوض ، أما الأدلة العقلية ، فلا تأويل لها ، بل تأويلها محال (٢) .

فالحاصل أن منهج الماتريدية في نصوص الوحي باطل فاسد ؛ لأنه صريح في أن العقل أصل والشرع تابع له .

(د) الأصول والمبادئ :

إن أصول الماتريدية ومبادئهم قد وافقوا أهل السنة في بعضها وخالفوهم في البعض الآخر ، وسنحاول بإذن الله استعراض هذه الأصول بغير إسهاب :

أولاً : الأصول التي وافقوا فيها أهل السنة والجماعة :

(١) الصحابة : وافق الماتريدية أهل السنة والجماعة في شأن الصحابة رضي الله عنهم جميعاً ، فهم يرون تفضيل أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه ، ثم عمر الفاروق ، ثم عثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم ، وذلك على ترتيبهم في الخلافة ، ويرون أن الحروب التي وقعت بين الصحابة كانت عن اجتهاد ، منهم من أصاب ، ومنهم من أخطأ ، وكلهم مأجور ، ولا يجوز القدح فيهم ، ويجب الكف عنهم ، ويرون أن الطعن في الصحابة إما أن يكون كفراً أو بدعة أو فسقاً (٣) .

---

(١) النبراس في شرح العقائد النسفية (ص ٣١٦ - ٣١٧) .

(٢) شرح العقائد النسفية (ص ٥ ، ٤٢) .

(٣) العقائد النسفية مع شرحها (ص ١٤٨ - ١٦٣) ، والبداية للصابوني (ص ١٠٠ - ١٠٥) ، وأصول الدين للبزدوي (ص ١٧٨ - ١٩٨) .

(٢) الخلافة والإمامة : وهذا كذلك من الأصول التي وافق الماتريدية فيها أهل السنة والجماعة ، فهم يرون أن الخلافة الراشدة كانت ثلاثين سنة ، ويرون أن الخليفة ينبغي أن يكون من قريش ، ويرون ضرورة تنصيب خليفة على الناس ، وإمام لهم ، يقيم الحدود ، ويسد الثغور ، ويجيش الجيوش ، ويأخذ الصدقات ، ويرد المتسلطة وقطاع الطرق ، ويقطع المنازعات ، وأن يكون ظاهرًا لا مختفيًا ، ولا يشترط أن يكون معصومًا ، ويرون الصلاة خلف كل بر وفاجر من الأئمة ، ويمنعون الخروج على الإمام ولو كان جائرًا [١] .

(٣) القدر : وافق الماتريدية أهل السنة كذلك في إثبات القدر ، وهم يقولون : إن أفعال العباد كلها من الخير والشر مخلوقة لله تعالى ، وإن الله عز وجل هو خالق أفعال الخير والشر وليس كما يزعم المعتزلة أن العبد خالق فعل نفسه . وهم يقولون : إن أفعال العباد خلق الله ، وكسب من العباد واختيار منهم . وهم يرون أن هناك فرقًا بين الحركات الاختيارية الإرادية كالبطش ونحوه ، وبين الحركات اللاإرادية كالارتعاش ونحوه ، والعبد يثاب على الطاعات الاختيارية ، ويعاقب على المعاصي الاختيارية كذلك [٢] .

(٤) النبوّات : يرى الماتريدية أن النبوة تثبت للنبي محمد ﷺ بطرق ، منها :

(أ) ما تواتر من أحواله ﷺ وسيرته وكرم أخلاقه وبعده عن الشر والظلم مع قدرته عليه ، فكل ذلك يصدقه في دعوى النبوة .

(ب) ما ثبت له ﷺ من المعجزات الكثيرة البالغة حد التواتر ، مثل : شق القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام والشراب ، ونحوها كثير .

(ج) أنه أتى بالقرآن المعجز وتحدى به الفصحاء البلغاء مع أنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ، وعجزوا على أن يأتوا بمثله ، أو معارضته ولو بأقصر سورة [٣] . غير أن

---

(١) نفس المصادر والمواضع السابقة .

(٢) العقائد النسفية مع شرحها للتفتازاني (ص ٧٥ - ٨٣) .

(٣) العقائد النسفية مع شرحها (ص ١٣٤ - ١٣٧) ، والتوحيد للماتريدي (ص ٣٠٢ ، ٣٠٣) ، والبداية للصابوني (ص ٨٩ - ٩٣) .

الكثيرين منهم يرون أن النبوة لا تثبت إلا بالمعجزة فقط ؛ لأنها الدليل اليقيني القاطع الذي لا يقبل الشك . وأكثرهم يقولون بعصمة الأنبياء من الصغائر ، وأن ما صدر منهم كان من قبيل فعل خلاف الأولى [١] .

(٥) اليوم الآخر : وافق الماتريدية أهل السنة والجماعة في الإيمان بالآخرة ، وما فيها من الحشر والنشر وأحوال البرزخ والجنة والنار والصراط والميزان والشفاعة وغيرها ، وقالوا : إنها من الأمور الممكنة التي أخبر بها الصادق المصدوق ﷺ ، ونطق بها الكتاب والسنة ؛ فتحمل على ظاهرها [٢] .

ثانياً : الأصول التي خالف فيها الماتريدية أهل السنة والجماعة :

(١) التوحيد : يقسم أهل السنة التوحيد من خلال استقرائهم للنصوص الشرعية إلى ثلاثة أقسام : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، فيثبتون هذه الأنواع الثلاثة لله عز وجل .

أما الماتريدية فإن التوحيد عندهم ثلاثة أنواع : توحيد في الذات ، فالله تعالى لا قسيم له بمعنى أنه لا يتبعض ولا يتجزأ [٣] . وتوحيد في الصفات ، فالله تعالى لا شبيه له . وتوحيد في الأفعال ، فالله تعالى لا شريك له في أفعاله .

يقول ملا علي القاري : « واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، وخالق لمصنوعاته » [٤] .

ويتضح من هذا أنهم جعلوا توحيد الربوبية هو الغاية العظمى ، مع أنه أمر فطري لا يخالف فيه أحد ، وكذلك أهملوا توحيد الألوهية تمامًا ولم يتطرقوا إليه بكلمة ، مع أنه الغاية العظمى من بعثة الرسل .

وأما الاستدلال على وجود الله تعالى فإنهم يستدلون على وجود الله تعالى بطريقة الحدوث ، وهي إثبات حدوث العالم أولاً ؛ وذلك أن العالم عندهم جواهر

---

(١) مدارك التنزيل (٤٣/١) ، كتاب التوحيد للماتريدي (ص ٢٠٢) .

(٢) العقائد النسفية مع شرحها (ص ١٤٨ - ١٦٣) ، والبداية للصابوني (ص ١٠٠ - ١٠٥) ، وأصول الدين للبزدوي (ص ١٧٨ - ١٩٨) .

(٣) العقائد النسفية مع شرحها (ص ٣٩) .

(٤) ضوء المعاني (ص ١٣) .

وأعراض ، والجواهر لا تنفك عن الأعراض ، والأعراض حادثة ، وما لا ينفك عن الحوادث فهو حادث [١] . فالعالم إذن حادث ، وإذا ثبت حدوث العالم ، فإن الأجسام في العالم لا تجتمع ولا تفترق بنفسها ولا هي قادرة على إصلاح ما فسد منها في حال قوتها وكمالها ، وإذا كانت الطبائع المتنافرة لا تجتمع بنفسها فلابد من قاهر يقهرها على غير طبعها وهو الله تعالى [٢] .

وهذه الطريقة في الاستدلال مخالفة لطريقة السلف أهل السنة والجماعة الذين يستدلون على وجود الله بدلالة الفطرة وغيرها ؛ وذلك لأن طريقة المتكلمين فيها تعقيد شديد ، وتكلف قد يخفى على كثير من الناس ، وكذلك فإن هذه الطرق توقع في الشبهات التي قد تؤدي إلى زعزعة الإيمان في النفس ، ولا سيما في نفوس العوام ، إضافة إلى أنه قد يطرأ عليها شبهات كثيرة طويلة تحتاج إلى إبطال لها .

(٢) الصفات : ضيق الماتريدية دائرة الإثبات ، وتظاهروا بإثبات ثماني صفات هي : الحياة ، والقدرة ، والعلم ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والتكوين [٣] .

والحقيقة أنهم لم يثبتوا حتى تلك الصفات الثماني ، بل أثبتوا بعضها . أما صفتا السمع والبصر فأكثرهم يثبتهما ، وبعضهم يرجعهما إلى غيرهما [٤] . وإثباتهم للإرادة يختلف عن إثبات بقية السلف .

وأما صفة الكلام فإنهم يقولون بالكلام النفسي الذي لا يسمع ، وليس بحرف ولا بصوت [٥] . وصفة التكوين عندهم هي مرجع لجميع الصفات الفعلية المتعدية ،

---

(١) كتاب التوحيد للماتريدي (ص ١١ - ١٣) .

(٢) كتاب التوحيد للماتريدي (ص ١٧ - ١٩) بتصرف .

(٣) إشارات المرام (ص ١٠٧ - ١١٤) .

(٤) كما صنع ابن الهمام في المسايرة (٦٩) فإنه أرجعهما إلى العلم .

(٥) التوحيد للماتريدي (ص ٥٨ - ٥٩) ، تبصرة الأدلة (١١٨ - ب) ، البداية من الكفاية (ص ٦٠،٦١) ، العقائد النسفية (ص ٥٣ - ٥٨) ، أصول الدين للبزدوي (ص ٦١) ، إشارات المرام (ص ١٣٨ ، ١٣٩) ، بحر الكلام (ص ٢٩ ، ٣٠) .

كالإحياء والإماتة والتخليد ، ولكنها في الواقع ليست صفة حقيقية عندهم ؛ لأنهم يزعمون أن الصفات الفعلية ليست قائمة بالله ، فرارًا من حلول الحوادث به [١] .
وهم يعطلون ما سوى ذلك من الصفات ، كصفة الوجه واليدين والاستواء والنزول والغضب والرضا والمجيء والمحبة والعلو والكلام الحقيقي وغير ذلك . فهم قد صرفوا نصوص إثبات الوجه إلى الذات [٢] والوجود [٣] ، وصرفوا نصوص إثبات اليدين إلى إثبات كمال القدرة [٤] أو الملك والمنة [٥] ، وصرفوا نصوص إثبات صفة الاستواء إلى الاستيلاء [٦] ، وعطلوا صفة النزول وصرفوا نصوصها إلى اللطف والرحمة [٧] وغيرها .

(٣) الإيمان : اتفق الماتريدية مع أهل السنة في عدم تكفير مرتكب الكبيرة [٨] ، لكنهم خالفوهم في أكثر مباحث الإيمان ، فمن ذلك :

(أ) قالوا بخروج الأعمال عن مسمى الإيمان ، وذلك خلافاً لمذهب السلف [٩] .

(ب) قالوا بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وهذا مخالف لمذهب السلف [١٠] .

---

(١) المواقف (ص ٢٩٣) ، والإنصاف (ص ٩٦ ، ٩٧) ، والإرشاد (ص ١٢٨ - ١٣٧) .
(٢) مدارك التنزيل للنسفي (٦٧٠/٢) ، وتفسير أبي السعود (٢٨/٧) .
(٣) إشارات المرام (ص ١٨٩) .
(٤) إشارات المرام (ص ١٨٩) .
(٥) بحر الكلام ص (ص ٢٠) .
(٦) التوحيد للماتريدي (ص ٧٢) .
(٧) شرح المواقف (٢٥/٨) .
(٨) التوحيد للماتريدي (ص ٣٣٣ ، ٣٣٤) ، والعقائد النسفية مع شرحها (ص ١٠٦ - ١٠٨) ، وبحر الكلام (ص ٤٣ ، ٤٤) .
(٩) التوحيد للماتريدي (ص ٣٣٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧) ، والبداية للصابوني (ص ١٥٢) ، والعقائد النسفية مع شرحها (ص ١١٩) ، وأصول الدين للبزدوي (ص ١٥٣) ، وشرح المقاصد (١٧٦/٥) ، والعمدة للنسفي (١/١٧) .
(١٠) أصول الدين للبزدوي (ص ١٥٣) ، وبحر الكلام للنسفي (ص ٤١ - ٥٢) ، والبداية من الكفاية (ص ١١٥) ، والعمدة للنسفي (١/١٧) ، والعقائد النسفية مع شرحها (ص ١٢٣ - ١٢٨) .

(ج) حرموا الاستثناء في الإيمان ، وهذا كذلك خلاف مذهب السلف [١] .

(د) ذهب أكثرهم إلى مذهب الماتريدي في تعريف الإيمان ، وأنه هو التصديق لا غير [٢] ، وأما الإقرار فهو شرط لإجراء الأحكام الدنيوية [٣] ، وهذا غلو في الإرجاء ، وهو خلاف مذهب السلف الذين قالوا : إن الإيمان تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان .

وإن كان فيهم من ذهب إلى أن الإيمان هو التصديق والإقرار [٤] ، غير أن جمهورهم ذهب إلى تعريف الإيمان بأنه التصديق فقط ، كما سبق .

(هـ) أشهر الرجال والفرق :

أولاً : أشهر الرجال :

وسأشير إلى بعض الرجال من المتقدمين والمتأخرين ممن أسهموا في نشر عقائد الماتريدية وتطويرها ، وهم :

(١) البزودي [٥] :

---

(١) التوحيد للماتريدي (ص ٣٨٨ - ٣٩٢) ، المسايرة (ص ٣٨١ - ٣٨٥) ، البحر الرائق (٢/ ٤٦) ، البداية (ص ١٥٥) ، شرح الفقه الأكبر (ص ٢٠٨ - ٢١٢) ، وبحر الكلام (ص ٤٠) .

(٢) بحر الكلام (ص ٣٨ ، ٣٩) ، المسايرة (ص ٣٣٠ ، ٣٣١) ، والتمهيد لأبي المعين النسفي (ص ٢٦/ب) ، والبداية للصابوني (ص ١١٩ - ١٢٣) ، وشرح المقاصد (١٧٦/٥) ، ونشر الطوالع (ص ٣٧٣، ٣٧٤) .

(٣) شرح ضوء المعاني (٢٠/١٩) ، والتمهيد لأبي المعين النسفي (٢٦/ب) ، والعمدة للنسفي (١/١٧) ، شرح العقائد النسفية (ص ١٢١) ، شرح المقاصد (١٧٨/٥ ، ١٧٩) ، المسايرة مع المسامرة (ص ٣٣٤) ، نشر الطوالع (ص ٣٧٤ ، ٣٧٥) ، الجوهرة المنيفة (ص ٣) ، ومختصر شرح الطحاوية ليونس خالص الأفغاني (ص ٩) .

(٤) صرح بذلك التفتازاني في شرح المقاصد (١٧٦/٥) ، وشرح العقائد النسفية (ص ١٢٠) ، والمرعشي في نشر الطوالع (ص ٣٧٤) ، وأصول الدين للبزدوي (ص ١٤٦) ، والعقائد النسفية (ص ١١٩ - ١٢٠) ، والمسايرة مع المسامرة (ص ٣٣٢ ، ٣٣٣) .

(٥) انظر ترجمته في : السير (٤٩/١٩) ، والجواهر المضيئة (٣٢٢/٣ ، ٦٤١) (٩٨/٤ ، ٩٩) ، تاج التراجم (ص ٦٠) ، كشف الظنون (٥٨١/٢) ، هدية العارفين (٧٧/٢) ، معجم المؤلفين (١١/ ٢١٠) ، الأعلام (٢٢/٧) ، وغيرها .

أبو اليسر محمد بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم بن موسى بن مجاهد ، نسبة إلى بزدة أو بزدوة .

ولقبه القاضي الصدر ، وكان شيخ الحنفية في عصره ، ولد عام ٤٢١ هـ ، وجده عبد الكريم من تلاميذ أبي منصور الماتريدي ، وممن تلقى البزدوي عنهم العلم : أبوه ، وإسماعيل بن عبد الصادق ، وأبو يعقوب يوسف بن منصور السياري ، ويعقوب بن يوسف بن محمد النيسابوري ، والشيخ أبو الخطاب ، وكان أبو اليسر البزدوي ينهى عن النظر في كتب الفلاسفة والمعتزلة ، ويرى أنها سبب للوقوع في الشرك والشك والزيغ ، وجَوَّز النظر في كتب الأشعري لمن عرف أخطاءه ، ولكنه لم يقف على شيء من كتب ابن كُلّاب ، وكان يرى أن كتاب التوحيد للماتريدي فيه تطويل ، وأن ترتيبه صعب ؛ لذلك ألف كتاب أصول الدين ، وهو عبارة عن إعادة ترتيب وتبسيط لكتاب التوحيد للماتريدي مع بعض إضافات ، كخلافه مع الأشعرية .

من أشهر كتبه : المرطب ، وهو حاشية على كتاب الجامع الصغير للشيباني ، وكتاب : الواقعات ، وكتاب : المبسوط ، وهما في الفقه ، وكتاب : أصول الدين ، السابق الذكر .

وكانت له مكانة كبيرة جدًا عند الماتريدية ، وتتلمذ عليه كثيرون ، من أشهرهم : ولده القاضي أحمد أبو المعالي ، ونجم الدين عمر بن محمد النسفي صاحب العقائد النسفية ، وعثمان بن علي البيكندي ، وأحمد بن نصر البخاري . توفي ببخارى سنة ٤٩٣ هـ .

(٢) أبو المعين النسفي [١] :

ميمون بن محمد بن محمد بن معتمد بن محمد بن محمد بن مكحول بن أبي الفضل المكحولي ، نسبة إلى نسف ، مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند ، والمكحولي نسبة إلى جده الأعلى مكحول ، وغلبت عليه النسبة إلى البلد ، لقب بعدة ألقاب ، وقد ولد سنة ٤٣٨ هـ .

---

(١) انظر ترجمته في : الجواهر المضيئة (٥٢٧/٣) ، تاج التراجم (ص ٧٨) ، كشف الظنون (٢٢٥/١، ٣٣٧، ٤٨٤ ، ٥٧٠) ، هدية العارفين (٤٨٧/٢) ، معجم المؤلفين (٦٦/١٣) ، الأعلام (٣٤١/٧) ، وغيرها .

ويعتبر من أشهر علماء الماتريدية ، ويعد في الماتريدية كالباقلاني والغزالي في الأشعرية ، ومن مؤلفاته : تبصرة الأدلة ، وهو أشهر مؤلفاته ، ويعتبر من أهم الكتب في عقائد الماتريدية ، بل هو أوسعها وأشملها على الإطلاق ، وهو عبارة عن عرض لعقائد الماتريدية ، ورد على مخالفيهم ، وخصوصًا المعتزلة ، وله كذلك كتاب : بحر الكلام ، وكتاب التمهيد ، وهو عبارة عن مختصر لتبصرة الأدلة ، وكتاب شرح الجامع الكبير للشيباني ، وكتاب : إيضاح المحجة لكون العقل حجة ، وكتاب : مناهج الأئمة ، وغيرها ، توفي سنة ٥٠٨ هـ عن سبعين سنة .

(٣) نور الدين الصابوني [(١)] :

أحمد بن أبي بكر الصابوني البخاري أبو محمد ، ولقبه نور الدين ، ولا يعرف تاريخ مولده ، لكنه توفي ليلة الثلاثاء السادس عشر من صفر سنة ٥٨٠ هـ .

ومن مؤلفاته : البداية في أصول الدين ، والمغني في أصول الدين ، وذكر ابن قطلوبغا : والهداية في علم الكلام ، والكفاية في الهداية ، وغيرها .

(٤) الكوثري :

محمد زاهد بن الحسن التركي الجركسي [(٢)] ، نسبة إلى أحد أجداده كوثر ، أو إلى قرية الكواثرة بضفة نهر شبز ببلاد القوقاز ، وقاعدة النسب ترجح الأول .

ولد ونشأ في قرية من أعمال دوزجة بشرق الآستانة ، وتفقه في جامع الفاتح بالآستانة ، واضطهده الاتحاديون خلال الحرب العالمية الأولى ، فاتجه إلى الإسكندرية سنة ١٣٤١ هـ ، وتنقل بين مصر والشام ، ثم استقر في القاهرة موظفًا في دار المحفوظات ، يترجم الوثائق التركية إلى العربية ، ويكتب ويصنف ، وكان يجيد عدة لغات ، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٧١ هـ . وكان من أشهر متأخري الماتريدية ،

---

(١) انظر ترجمته في : الجواهر المضيئة (٣٢٨/١ ، ٢٢٩/٣) ، الطبقات السنية (١٠٢/٢) ، كشف الظنون (١٤٩٩/٢ ، ١٥٠٠ ، ٢٠٤٠) ، إيضاح المكنون (١٦٩/١ ، ٣٧١/٢) ، الفوائد البهية (ص ٤٢) ، معجم المؤلفين (١١/٢ ، ١٧١) ، الأعلام (٢٥٣/١) .

(٢) انظر ترجمته في : الأعلام (١٢٩/٦) ، معجم المؤلفين (٤/١٠ – ٥) ، تشنيف الأسماع (ص ٢٠٥ – ٢١٦) ، مخالفة الكوثري لاعتقاد السلف للدكتور / محمد الخميس .

ومن أشدهم على أهل السنة ، أكثر من الطعن والسب والقدح في أئمة أهل السنة ، وتمجيد الماتريدية ، وله كتب ومؤلفات كثيرة ، منها : تأنيب الخطيب ، وكتاب مقالات الكوثري ، وتعليق على كتاب العالم والمتعلم ، وكتاب الرسالة ، وكتاب الفقه الأبسط المنسوب إلى أبي حنيفة ، وكتاب تبديد الظلام المخيم من نونية ابن القيم ، وله كتب وتعليقات أخرى كثيرة .

ثانيًا : الفرق :

لم تفترق الماتريدية إلى فرق بينها تباين في الأصول أو نحو ذلك ، لكن يمكن القول بأن هناك مدارس للماتريدية ، تولت نشر عقائدها والدفاع عنها في زمن معين أو في بلد معين ، فمنها : البريلوية ، والديوبندية ، وغيرها .

(و) الانتشار في العصر الحاضر :

نستطيع القول بأن الماتريدية مع الأشعرية قد تقاسموا الانتشار والتسلط في معظم المدارس والجماعات في أكثر البلاد الإسلامية ما عدا الديار السعودية . وقد انتسب إلى الماتريدية عامة متأخري الحنفية ، بل وأكثر متقدميهم كذلك . والعقائد الماتريدية منتشرة في بلاد العجم ، كالهند وباكستان وتركيا وغيرها ، وكذلك فإنها واسعة الانتشار في معظم البلاد العربية مع الأشعرية ، وقد أطلقوا على أنفسهم اسم أهل السنة ، وسموا علم التوحيد علم الكلام ، وعمت بهم البلوى في الأزمنة المتأخرة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وكان من أهم أسباب انتشار عقائدهم ونفوذهم ما كان من تبني الدولة العثمانية للمذهب الماتريدي ، ومحاولتها فرضه في كل الولايات الخاضعة لها ، والعمل على تمكين الماتريدية من كل الوظائف الدينية ، كالإفتاء والقضاء والتدريس وغيره ؛ فلذلك انتشر هذا المذهب في كثير من البلاد الإسلامية كما سبق .

(ز) التقويم :

تقدم القول أن الماتريدية وافقوا أهل السنة والجماعة في بعض أصولهم ، وسبق بيانها ، لكنهم خالفوهم كذلك في أصول أخرى وقد سبق الكلام عنها كذلك ، فهم كسائر الطوائف الأخرى التي خالفت أهل السنة في أمور ، عندهم حق وباطل ،

لكنهم أبعد عن أهل السنة من الكُلَّابية ، فالكُلَّابية كانوا أقرب منهم إلى أهل السنة والجماعة ، وهؤلاء أبعد عن الحق من الكُلَّابية ، لكنهم على كل حال أقل شرًّا وأخف خطراً من الجهمية والمعتزلة وأشباههم ، غير أنه ينبغي الحذر من المسائل التي خالفوا أهل السنة فيها ، وينبغي الاحتياط من دعواهم أنهم أهل السنة والجماعة .

مراجع للتوسع :

(١) الماتريدية دراسة وتقويم . لأحمد بن عوض الله الحربي .

(٢) الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات . للشمس السلفي الأفغاني .

(٣) منهج الماتريدية في العقيدة . للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس .

الكُلَّابية

(أ) التعريف :

الكلابية فرقة تنتسب إلى أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب القطان البصري . ولقب كُلَّاباً لأنه كان يجتذب الخصم إليه بقوته في المناظرة ، كما يجتذب الكُلَّاب الشيء إليه . وكان رأس المتكلمين بالبصرة في زمنه [١] . وكان يرد على المعتزلة والجهمية ، وكانت له معهم مناظرات ومجادلات ، وهو الذي دمر المعتزلة في مجلس الخليفة المأمون وفضحهم ببيانه [٢] . وزعم البعض أنه أخو يحيى ابن سعيد القطان الحافظ العالم بالحديث النبوي ، وهذا غير صحيح [٣] . واتهم ابن كلاب بأنه ابتدع أقواله ليدخل دين النصارى في دين المسلمين إرضاء لأخته النصرانية لما اعترضت على إسلامه ، وقد كذب ذلك ابن تيمية [٤] والذهبي [٥] .

ولم تشر مصادر ترجمته إلى شيوخه ، وأما تلامذته فقد ذكر منهم الذهبي [٦] : داود الظاهري ، والحارث المحاسبي .

(ب) النشأة والتطور :

نشأت الكلابية على يد عبد الله بن سعيد بن كلاب الذي عاش في زمن شهد سطوة المعتزلة وتسلطهم واستمالتهم للخلفاء ، وبلغ ذلك ذروته في عهد الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ، واستمر في عهد المعتصم والواثق إلى أن رفع الله هذا البلاء في زمن المتوكل . وقد وقعت مناظرات ومساجلات بين ابن كلاب وبين المعتزله والجهمية ، وأراد ابن كلاب نصرة عقيدة السلف الصالح بالطرق والبراهين العقلية والأصولية ، حتى عدَّه كثير من المؤرخين للفرق من متكلمة أهل السنة والجماعة .

---

(١) السير (١١/١٧٤) .

(٢) أصول الدين للبغدادي ص (٣٠٩) .

(٣) لسان الميزان (٣/٢٩١) ، إتحاف السادة المتقين (٢/٦) .

(٤) منهاج السنة (٢/٣٩٧) ، ودرء التعارض (٦/١٥٥) ، ومجموع الفتاوى (٥/٥٥٥ ، ٨/١١٥) .

(٥) السير (١١/١٧٥) .

(٦) السير (١١/١٧٥) .

قال المقدسي : « الكلابية أصحاب عبد الله بن كلاب ، مناظرهم ولسانهم وبدرهم »[١] .

وقال الشهرستاني : « حتى انتهى الزمان إلى عبد الله بن سعيد الكلابي ، وأبي العباس القلانسي ، والحارث بن أسد المحاسبي . وهؤلاء كانوا من جملة السلف ، إلا أنهم باشروا علم الكلام ، وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية وبراهين أصولية »[٢] .

وهذان المذكوران - المحاسبي والقلانسي - وغيرهما ، هم من تلامذته الذين نشروا مذهبه ، إلى أن تلقف هذا المذهب في القرن الرابع الهجري كل من : أبي منصور الماتريدي المتوفى سنة (٣٣٣) ، وأبي الحسن الأشعري المتوفى سنة (٣٣٠) ، فنشرا أقوال ابن كلاب ، وأشاعاها ، وهكذا تطور المذهب الكلابي على أيدي هؤلاء ومن جاء بعدهم من الماتريدية والأشعرية ، وذلك كما في مسائل العلو والاستواء والرؤية وغيرها على النحو التالي :

(١) كان ابن كلاب مثبتًا للعلو والاستواء ، مثبتًا للرؤية ، بينما نفى الماتريدية والأشعرية صفة العلو ، وقالوا : إن الله لا داخل العالم ولا خارجه . وأولوا الاستواء بأنه الاستيلاء ، وأما بخصوص الرؤية فإنهم اشترطوا لها شروطًا مخترعة ، فقالوا : يرى بلا جهة ولا مسافة . بل إن بعض محققيهم صرحوا بأنه ليس بينهم وبين المعتزلة خلاف في مسألة الرؤية فإنها - عندهم - رؤية قلبية وليست بصرية .

(٢) في الإيمان : كان ابن كلاب يقول في الإيمان : إنه معرفة بالقلب وإقرار باللسان . ويرى صحة إيمان المقلد ، ويحكم له بالإسلام ، بينما يذهب جمهور الأشعرية والماتريدية إلى أن الإيمان تصديق بالقلب ، ولا يشترطون لزوم النطق باللسان . ويرى بعض منهم عدم صحة إيمان المقلد[٣] .

(٣) في القدر : كان ابن كلاب يثبت القدر في الجملة على طريقة أهل السنة والجماعة ، أما الأشعري فإنه أتى بعد ذلك بنظرية[٤] الكسب ، وهي أقرب ما تكون إلى مذهب الجبرية .

---

(١) البدء والتاريخ (١٥٠/٥) .
(٢) الملل والنحل (٨٥/١) .
(٣) انظر فتح الباري لابن حجر (١٣ : ٣٦٢) .
(٤) شرح المواقف (١٤٥/٨ ، ١٤٦) .

(ج) مصادر التلقي :

ذكرنا فيما سبق أن ابن كلاب أراد نصرة السنة ببراهين أصولية وحجج عقلية ؛ فلذا كان يقدم العقل على النقل في بعض المسائل ، قال السجزي : « فلما نبغ ابن كلاب وأضرابه وحاولوا الرد على المعتزلة من طريق مجرد العقل وهم لا يخبرون أصول السنة ولا ما كان السلف عليه ولا يحتجون بالأخبار الواردة ، ذلك زعمًا منهم أنها أخبار آحاد وهي لا توجب علمًا » [١] .

فمن ذلك : مسألة القرآن :

فقد كان الناس فريقين في شأن القرآن ، حيث ذهب أهل السنة إلى أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وذهب المعتزلة إلى أنه مخلوق ، فحاول ابن كلاب التوسط بين المذهبين ، فأتى بقول ثالث تلفيق منهما ، فقال : « إن القرآن هو حكاية عن كلام الله » . مع أنه يقول : « إن كلام الله تعالى غير مخلوق » . وهو أول من أحدث القول ببدعة الكلام النفسي وأنكر الحرف والصوت ، وهذه البدعة لا دليل عليها من الشرع ، وإنما أتى بها لما ظنها دليلًا عقليًا لنصرة مذهب أهل السنة والجماعة [٢] .

بعض مسائل الصفات :

فقد صرف بعض النصوص في الصفات عن ظاهرها ، واستخدم التأويل العقلي ، وذلك في مثل صفة الأصابع لله تعالى ، فقد صرف النص عن ظاهره ، وأول الأصابع بأنها نعم الله تعالى ، فحديث : « **إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن ...**» [٣] فالإصبعان هنا نعمتان من نعم الله تعالى [٤] .

وأما عموم المسائل الأخرى فإنه قدم فيها النقل على العقل . ومما يدل على ذلك إثباته للصفات الخبرية ، كالوجه والعين واليد ، والصفات الفعلية ، كالعلو

---

(١) الرد على من أنكر الحرف والصوت للسجزي (ص ٨١) .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) مسلم ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء (٢٠٤٥/٤ ح ٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو .

(٤) طبقات الحنابلة (١٣٣/٢) .

والاستواء . فقد قال بعد كلامه عن تقرير صفة العلو : فكيف يكون الحق فى خلاف ذلك والكتاب ناطق به وشاهد له [١] .

أما من اتبعوا طريقته فقد توسعوا في استعمال العقل حتى قدموه على النقل في أكثر المسائل ، ويدل على ذلك إنكارهم للصفات الخبرية ، كالوجه والعين واليدين ، وكذلك الصفات الفعلية ، كالعلو والاستواء وغيرها ، وكثير من هؤلاء ممن انتسب إلى الأشعري والماتريدي . وسأنقل هنا قولاً لأحد أئمة الماتريدية في بيان منهجهم ، ثم أتبعه بقول لأحد أئمة الأشعرية توضح منهجهم كذلك في التلقي :

(١) قال الزبيدي الماتريدي : « إن الشرع إنما ثبت بالعقل ... ، فلو أتى الشرع بما يكذبه العقل وهو شاهده لبطل الشرع والعقل معًا . إذا تقرر هذا فنقول : كل لفظ يرد فى الشرع ... وهو مخالف للعقل ... إما أن يتواتر أو ينقل آحادًا ، والآحاد إن كان نصًا لا يحتمل التأويل قطعنا بافتراء ناقله أو سهوه أو غلطه ، وإن كان ظاهرًا فظاهره غير مراد ، وإن كان متواترًا فلا يتصور أن يكون نصًّا لا يحتمل التأويل ، بل لا بد وأن يكون ظاهرًا ... » [٢] .

(٢) قال الرازي الأشعري : اعلم أن الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شيء ثم وجدنا أدلة نقلية يشعر ظاهرها بخلاف ذلك ، فهناك لا يخلو الحال من أحد أمور أربعة :

(أ) إما أن يصدق مقتضى العقل والنقل فيلزم تصديق النقيضين ، وهو محال .

(ب) وإما أن يبطل فيلزم تكذيب النقيضين ، وهو محال .

(ج) وإما أن يصدق الظواهر النقلية ويكذب الظواهر العقلية ، وذلك باطل ؛ لأنه لا يمكننا أن نعرف صحة الظواهر النقلية إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية إثبات الصانع وصفاته وكيفية دلالة المعجزة على صدق الرسول ﷺ وظهور المعجزات على محمد ﷺ ، ولو جوزنا القدح في الدلائل العقلية القطعية ، صار العقل متهمًا غير

---

(١) درء التعارض (١٩٤/٦) ونقله عن ابن فورك .

(٢) شرح الإحياء للزبيدي (١٠٥/٢ ، ١٠٦) ، وانظر أصل هذا القانون الكلي في تبصرة الأدلة (ص ٥٤) ، والنور اللامع (ص ٨٠ ، ٨١) .

مقبول القول ، ولو كان كذلك لخرج أن يكون مقبول القول في هذه الأصول ، وإذا لم تثبت هذه الأصول خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدة ، فثبت أن القدح في العقل لتصحيح النقل يفضي إلى القدح في العقل والنقل معًا وأنه باطل ، ولما بطلت الأقسام الأربعة لم يبق إلا أن يقطع بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة بأن هذه الدلائل النقلية إما أن يقال : إنها غير صحيحة ، أو يقال : إنها صحيحة ، إلا أن المراد منها غير ظواهرها ...[1] .

والحاصل : أن عامة المتبعين لابن كلاب من المتأخرين يجعلون العقل أصل التلقي في مسائل الإلهيات ويجعلون النقل تابعًا ، ثم إن أهل التصوف منهم يضيفون الكشف والذوق كمصادر للتلقي ، فيقدمونها على النص ، ويؤولون النص ليوافقهم[2] .

وكل هذه الطرق مخالفة للحق الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم . والواجب تقديم النص والنقل على ما عداه ، فإنه وحي الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وأما العقل فإنه يخطئ ويصيب ، ولا يجوز جعله عمدة التلقي فضلًا عن تقديمه على النقل والنص . والنص حجة بين الإنسان وبين ربه عز وجل ، فالواجب تقديمه على كل ما سواه ، وجعله العمدة في التلقي ، وما سواه فإنه له تابع وشاهد فقط .

(د) الأصول والمبادئ :

لقد وافق ابن كُلَّاب أهل السنة والجماعة في بعض أصوله ، وخالفهم في بعضها الآخر . وسوف أقتصر فقط على ابن كُلَّاب دون المنتسبين إليه الذين لحق بعضهم بالماتريدي وبعضهم بالأشعري . ونظرًا لعدم وجود كتب لابن كُلَّاب ، فسأنقل عنه من خلال المصادر التي ذكرت أقواله كمقالات الأشعري وغيرها .

أولًا : الأصول التي وافق فيها ابنَ كُلَّاب أهل السنة والجماعة :

(١) إثبات الأسماء الحسنى لله تعالى :

---

(١) أساس التقديس للرازي (ص ١٦٨ ، ١٧٣) .

(٢) الرسالة اللدنية للغزالي ضمن مجموعة القصور العوالي (١/١١٤ - ١١٨) .

فيقول : لم يزل الله تعالى عالمًا ، قادرًا ، حيًا ، سميعًا ، بصيرًا ، عزيزًا ، عظيمًا ، جليلًا ، متكبرًا ، جبارًا ، كريمًا ، جوادًا ، واحدًا ، صمدًا ، فردًا ، باقيًا ، ربًا ، إلهًا ، مريدًا ، كارهًا ، راضيًا عمن علم أنه يموت مؤمنًا وإن كان أكثر عمره كافرًا ، ساخطًا على من علم أنه يموت كافرًا وإن كان أكثر عمره مؤمنًا ، محبًا ، مبغضًا ، مواليًا ، معاديًا ، قائلًا ، متكلمًا ، رحمانًا [١] .

(٢) في الصفات :

(أ) الصفات الخبرية :

يثبت ابن كُلَّاب بعض الصفات الخبرية ، كالوجه واليد والعين والحياة والسمع والبصر والقدرة ، فيقول : « أطلق اليد والعين والوجه خبرًا ؛ لأن الله أطلق ذلك ، ولا أطلق غيره ، فأقول : هي صفات الله عز وجل ، كما قال في العلم والقدرة والحياة أنها صفات » [٢] .

وقال : « بعلم ، وقدرة ، وحياة ، وسمع ، وبصر ، وعزة ، وعظمة ، وجلال ، وكبرياء ، ووجود ، وكرم ، وبقاء ، وإرادة ، وكراهة ، ورضى ، وسخط ، وحب ، وبغض ، وموالاة ، ومعاداة ، وقول ، وكلام ، ورحمة ، وأنه قديم لم يزل بأسمائه وصفاته » [٣] .

ويقول أيضًا : « معنى أنه عالم : أن له علمًا ، ومعنى أنه قادر : أن له القدرة ، ومعنى أنه حي : أن له حياة ، وكذلك القول في سائر أسمائه وصفاته » [٤] .

(ب) الصفات الفعلية :

يثبت ابن كُلَّاب بعض الصفات الفعلية ، كالاستواء والعلو ، فيقول في كتاب الصفات : « فرسول الله ﷺ وهو صفوة الله من خلقه ، وخيرته من بريته ، وأعلمهم

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري (ص ١٦٩) ط . ريتر .

(٢) مقالات الإسلاميين (ص ٢١٧ - ٢١٨) .

(٣) مقالات الإسلاميين (ص ١٦٩) .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

جميعاً به ، يجيز السؤال بأين وبقوله ، ويستصوب قول القائل : إنه في السماء ، ويشهد له بالإيمان عند ذلك ، وجهم بن صفوان وأصحابه لا يجيزون الأين زعموا ، ويحيلون القول به ، ولو كان خطأ كان رسول الله ﷺ أحق بالإنكار له ، وكان ينبغي أن يقول لها : لا تقولي ذلك فتوهمين أن الله عز وجل محدود ، وأنه في مكان دون مكان ، ولكن قولي : إنه في كل مكان ؛ لأنه الصواب دون ما قلت ، كلا ، لقد أجازه رسول الله ﷺ مع علمه بما فيه وأنه أصوب الأقاويل ، والأمر الذي يوجب الإيمان لقائله ، ومن أجله شهد لها بالإيمان حين قالته ، فكيف يكون الحق في خلاف ذلك ؟ والكتاب ناطق به وشاهد له » [١] .

وقال ابن كُلَّاب أيضًا : ولو لم يشهد لصحة مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الفن خاصة إلا ما ذكرنا من هذه الأمور لكان فيه ما يكفي ، كيف وقد غرس في بنية الفطرة ومعارف الآدميين من ذلك ما لا شيء أبين منه ولا أوكد ؟ لأنك لا تسأل أحدًا من الناس عنه ، عربيًا ولا عجميًا ، ولا مؤمنًا ولا كافرًا ، فتقول : أين ربك ؟ إلا قال : في السماء ، إن أفصح ، أو أومأ بيده أو أشار بطرفه إن كان لا يفصح ، ولا يشير إلى غير ذلك من أرض ولا سهل ولا جبل ، ولا رأينا أحدًا داعيًا له إلا رافعًا يديه إلى السماء ، ولا وجدنا غير الجهمية يسأل عن ربه فيقول : في كل مكان - كما يقولون - وهم يدَّعون أنهم أفضل الناس كلهم ، فتاهت العقول ، وسقطت الأخبار ، واهتدى جهم وحده وخمسون رجلًا معه ، نعوذ بالله من مضلات الفتن [٢] .

وأما الاستواء فإنه يقول : فنحن لا نحتشم أن نقول : استوى الله على العرش ، ونحتشم أن نقول استوى على الأرض ، واستوى على الجدار وفي صدر البيت [٣] .

ويرى ابن كُلَّاب أن استواء الله تعالى على العرش بلا مماسة [٤] .

---

(١) درء التعارض (١٩٣/٦ ، ١٩٤) ، ونقله عن ابن فورك .

(٢) نفس المصدر السابق (١٩٤/٦) .

(٣) نفس المصدر (١١٩/٦ ، ١٢٠) .

(٤) أصول الدين للبغدادي (ص ١١٣) .

(٣) في الرؤية :

يثبت ابن كُلَّاب رؤية المؤمنين لربهم سبحانه وتعالى بأبصارهم في الجنة ، ولا يرى مانعًا عقليًا من ذلك ، بالنظر إلى أن كل قائم بنفسه يرى [٤] .

(٤) في الإيمان :

يوافق ابن كُلَّاب أهل السنة والجماعة في الحكم بصحة إيمان المقلد ، وكذلك يوافق أهل السنة أيضًا في شأن مرتكب الكبيرة ، وأنه فاسق لم يخرج من الإيمان ، وإنما هو تحت المشيئة الإلهية ، فإن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له [٥] .

غير أنه يأخذ اتجاهًا مخالفًا لأهل السنة في تعريف الإيمان ، كما سترى ذلك فيما بعد - إن شاء الله - ضمن الأصول التي خالف فيها أهل السنة .

(٥) القدر :

يثبت ابن كُلَّاب أن الخير والشر بإرادة الله تعالى ، وأن ما يقع في الكون بمشيئة الله وإرادته ، وأن أفعال العباد من خير وشر خلق لله تعالى .

يقول ابن كُلَّاب : أقول في الجملة : إن الله أراد حدوث الحوادث كلها خيرها وشرها ، ولا أقول في التفصيل : إنه أراد المعاصي ، وإن كانت من جملة الحوادث التي أراد حدوثها . كما أقول في الجملة عند الدعاء : يا خالق الأجسام . ولا أقول : يا خالق القرود والخنازير والدم والنجاسات ، وإن كان هو الخالق لهذه الأشياء كلها [١] .

---

(١) المجرد لابن فورك (ص ٣٣٣) ، وأصول الدين للبغدادي (ص ٩٧) ، والأشعري في المقالات (ص ٢٩٨) ، وابن تيمية في منهاج السنة (٢٥٤/٣) .

(٢) المقالات للأشعري (ص ٢٩٣ ، ٢٩٨) .

(٣) أصول الدين للبغدادي (ص ١٠٤) .

ثانيًا : الأصول التي خالف ابن كلاب فيها أهل السنة والجماعة :

(١) في الصفات :

فابن كُلَّاب وإن وافق السلف فى إثبات صفات الذات ، لكنه خالفهم فنفى الصفات والأفعال الاختيارية ، مثل : الرضى والغضب والمحبة والكرم ، بل جعل كل هذه الصفات ذاتية أزلية ، تمامًا كصفات السمع والبصر ؛ وذلك لأنه ينفي الصفات والأفعال الاختيارية ، لأنه يرى أن في إثباتها إقرارًا بحلول الحوادث في ذات الله تعالى ، كذلك روي عنه التأويل في بعض الصفات ، حيث أوَّل الأصابع بالنعمة .

(٢) في مسألة القرآن والكلام الإلٰهي :

فعلى الرغم من إقرار ابن كُلَّاب بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، لكنه أتى ببدعة عجيبة ، وهي أن القرآن إنما هو حكاية عن كلام الله تعالى ، وأتى ببدعة الكلام النفسي الذي ليس بحرف ولا صوت [١] ، وقال : إن الكلام الإلهي قائم بذات الله ، تمامًا كما أن القدرة قائمة به ، والعلم قائم به ، وأن كلام الله تعالى لا ينقسم ولا يتبعض ، وليس بحروف وصوت ، وأنه معنى واحد بالله عز وجل ، وأن رسم القرآن يتغاير ، ولكن كلام الله نفسه لا يتغاير ولا يتجزأ ، وأنه معنى واحد ، وإنما يسمى أمرًا لعلة ، ونهيًا لعلة ، وخبرًا لعلة ، وأن كلامه تعالى لا يتصف بالأمر والنهي والخبر أزلًا ، بل يرى أن هذه الأمور حادثة مع قدم الكلام الإلهي نفسه ، وهكذا يطول كلامه في شأن القرآن ، لكنه إن وافق أهل السنة في جزء من كلامه فقد خالفهم في كثير مما يتعلق بصفة الكلام ، كما يتضح ذلك مما نقلناه [٢] .

(٣) قوله بالموافاة :

ومعناها أن الله لم يزل راضيًا عمن يعلم أنه يموت مؤمنًا ، وإن كان أكثر عمره كافرًا ، ولم يزل ساخطًا على من يعلم أنه يموت كافرًا ، حتى وإن كان أكثر عمره

---

(١) الرد على من أنكر الحرف والصوت للسجزي (ص ٨١) ، و(ص ١٧٨) .

(٢) المقالات للأشعري (ص ٢٩٨ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥) ، المجرد لابن فورك (ص ٦٠) ، مجموع الفتاوى (٢٧٢/١٢) ، التسعينية لابن تيمية (ص ٨٧) ، مختصر الصواعق (٢٩٠/٢) ، أصول الدين للبغدادي (ص ١٠٨) ، الإرشاد للجويني (ص ١١٩) ، نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ٣٠٣) .

مؤمنًا . ويفهم من ذلك أن الرضى عن المؤمن – الذي كان كافرًا – بعد السخط عليه لا يكون أبدًا ؛ حتى لا يقول : إن الله حدث له أمر لم يكن موجودًا من قبل[١] .

(٤) في الإيمان :

يذهب ابن كُلَّاب إلى تعريف الإيمان بأنه الإقرار باللسان والمعرفة . وهو بهذا يخالف جماهير أهل السنة والجماعة ، فإن الإيمان عند السلف – أهل السنة والجماعة – تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح[٢] – فهم يجعلون الأعمال داخلة في مسمى الإيمان ، أما ابن كُلَّاب فيخالفهم في ذلك ، وإن كان يوافق في مسألة صحة إيمان المقلد ومرتكب الكبيرة كما سبق الكلام عنه .

وكذلك له قول آخر عجيب في صفات الذات ، وهو أن صفات الباري سبحانه وتعالى لا تتغاير ، وأن العلم لا هو القدرة ولا غيرها ، وكذلك كل صفة من صفات الذات لا هي الصفة الأخرى ولا غيرها[٣] .

وهو بهذا يقترب من قول النفاة من المعتزلة ، كأبي الهذيل العلاف المعتزلي ، فإن الأشعري لما نقل مقالة أبي الهذيل في صفات الذات ، وأن الصفة منها لا يقال فيها هي الأخرى ولا هي غيرها ، قال الأشعري : وهذا نحو ما أنكر من قول عبد الله ابن كُلَّاب[٤] .

(هـ) أشهر الرجال والفرق :

أولاً : أشهر الرجال :

قام تلامذة لعبد الله بن كُلَّاب بنشر مذهبه والانتصار له والذب عنه ؛ لذلك سُمُّوا الكُلَّابية ، وأشهر هؤلاء التلاميذ هم :

(أ) الحارث بن أسد المحاسبي البغدادي ، أبو عبد الله :

ولد بالبصرة عام ١٦٥ هـ تقريبًا ، وانتقل إلى بغداد فعاش بها ، وكان المحاسبي

---

(١) المقالات للأشعري (ص ٢٩٨ ، ٥٤٧) ، المجرد لابن فورك (ص ٤٥) .

(٢) أصول الدين للبغدادي (ص ١٠٤ ، ١٤٩) ، وطبقات السبكي (١/٩٥) .

(٣) المقالات (ص ١٧٠ ، ٥٤٦) .

(٤) المقالات (ص ١١٧) .

مشهورًا بالتصوف ، وكان يرى كفر المعتزلة ، وكان على خلاف مع أبيه الذي نسب إلى القول في القدر بقول المعتزلة ، حتى إن الحارث دعاه إلى تطليق أمه ، ولما مات لم يأخذ من تركته شيئًا .

وكان الحارث على صلة بأهل الحديث ، وروى عن بعضهم ، لكنه انشغل بالتصوف والكتابة في شأن التصوف حتى نقم عليه أهل الحديث ، ومنهم الإمام أحمد رحمه الله تعالى .

وقد اهتم المحاسبي اهتمامًا كبيرًا بإصلاح القلب والنية والعمل ، وصنف في ذلك التصانيف الكثيرة ، واهتم به جدًا ، وكان مع ذلك يأمر باتباع الكتاب والسنة ولزوم حدودهما ، ويحذر من مخالفتهما جدًا ، غير أنه انتقد بعض أهل الحديث والفقه بما لا يتابع ولا يوافق عليه بحال . وقد وافق الحارث أهل السنة في إثبات الصفات الإلهية على الجملة ، وكذلك إثبات أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ، كذلك فإنه انتصر بشدة لإثبات صفة العلو والاستواء ، ورد على الحلولية ردًا موسعًا قويًا ، وكذلك وافق أهل السنة في إثبات الشفاعة ، وفي مسألة مرتكب الكبيرة ، وشنع بشدة على المعتزلة ووصفهم بالضلال .

غير أنه قد روي عنه أقوال في شأن الصفات والأفعال الاختيارية يوافق فيها ابن كُلَّاب ، بما يعني نفي الصفات والأفعال الاختيارية ، إذ حكم بأزلية الصفات جميعها ، وله نصوص في ذلك يرجع إليها في مواضعها [١] .

وقد ذكر غير واحد أنه وافق ابن كُلَّاب في هذه المقالات ونحوها [٢] . وتوفي الحارث بن أسد المحاسبي ببغداد في عام ٢٤٣ هـ [٣] .

---

(١) فهم القرآن للمحاسبي (ص ٢٦٣ ، ٣٠٧ ، ٣٤٠ - ٣٤٦ ، ٣٧٠) .

(٢) المنهاج لابن تيمية (٢١٧/١ ، ٢١٨) ، والموافقة له أيضًا (٢ ص ١٣٠، ٣ ص ٢٣٩) ، وأصول الدين للبغدادي (ص ٢٢٢ ، ٢٥٤) ، وإشارات المرام للبياضي (ص ٢١٤ ، ٢٥٣) ، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للنشار (٣٣١/١) .

(٣) لترجمته انظر : الحلية (٧٣/١٠) ، تاريخ بغداد (٢١١/٨) ، الأنساب (١٠٣/١٢) ، طبقات السبكي (٢٧٥/٢) ، تهذيب الكمال للمزي (٢٠٨/٥) ، السير للذهبي (١١٠/١٢) ، تهذيب التهذيب (١٣٤/٢) ، البداية والنهاية (٣٣٠/١٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٥) وغيرها .

(ب) أبو العباس القلانسي :

تاريخ ولادة القلانسي غير محدد على وجه الدقة ؛ وذلك لأن كتب التراجم لم تهتم بترجمته كثيراً ، وكذلك تاريخ وفاته ، لكن المؤكد أنه كان معاصرًا لأبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى [١] .

وقد اتفق القلانسي مع ابن كُلَّاب في أكثر المسائل التي انفرد بها عن جمهور أهل السنة ، ومنها قوله : إن الله قديم بقدم هو قائم به . خلافًا للأشعري القائل بأنه قديم لذاته [٢] . وقد أجاز وجود الكلام لما ليس بحي ، وذلك خلافًا للأشعرية الذين جعلوا الحياة شرطًا للكلام [٣] . وله أقوال أخرى في مسائل وافق فيها ابن كُلَّاب .

وقد نسبه إلى الكُلَّابية جماعة ، منهم البغدادي في أصول الدين ، ومنهم الشهرستاني ، ومنهم ابن تيمية رحمه الله تعالى .

لكن يرى ابن تيمية أن القلانسي كان أقرب إلى أهل السنة من كُلَّابية خراسان ، فيقول : « كما أن العراقيين المنتسبين إلى أهل الإثبات من أتباع ابن كُلَّاب ، كأبي العباس القلانسي ، وأبي الحسن الأشعري ، وأبي الحسن علي بن مهدي الطبري ، والقاضي أبي بكر بن الباقلاني وأمثالهم أقرب إلى السنة ، وأتبع لأحمد بن حنبل وأمثاله من أهل خراسان المائلين إلى طريقة ابن كُلَّاب » [٤] . فهذان الشيخان هما أشهر تلاميذ مدرسة ابن كُلَّاب الكلامية المذكورة .

وهناك تلاميذ آخرون لهذه المدرسة ، لكنهم ليسوا كهذين في الشهرة ، ولعل أبا الحسن الأشعري رحمه الله أشهر من سلك طريقة ابن كُلَّاب في كثير من مسائلها ، لكن هذا كان في الطور الثاني من مراحله الفكرية ، إلا أنه استقر في طوره الثالث والأخير على عقيدة أهل السنة ؛ ولهذا فإننا لن نتكلم هنا عن الأشعري .

---

(١) تبيين كذب المفتري (ص ٣٩٨) .

(٢) أصول الدين للبغدادي (ص ٨٩) .

(٣) المصدر السابق (ص ٢٩) .

(٤) الملل والنحل (٨٩/١) .

قال الشهرستاني : وأبو الحسن الأشعري لما رجع عن مذهب المعتزلة سلك طريقة ابن كُلَّاب [١] . لكن كما ذكرنا فإنه استقر في آخره على عقيدة السلف الصالح رحمهم الله تعالى .

ثانياً : الفرق :

لقد اندثر اسم كُلَّاب - أو كاد - ولم يعد له وجود كاسم إلا في كتب التاريخ والفرق ، لكن المبادئ والأصول استمرت في أتباع أبي الحسن الأشعري وأتباع أبي منصور الماتريدي ، الذين طوروا كثيراً من تلك الأصول .

(و) الانتشار في العصر الحاضر :

كما ذكرنا فإن الأشعرية والماتريدية هم الذين تلقفوا أصول الكُلَّابية وطوروها وزادوا عليها ، فحيثما وجد الأشعرية والماتريدية فهم حاملوا أصول الكُلَّابية . ومن المعلوم أن كثيراً من الشافعية والمالكية في الأزمنة المتأخرة هم من الأشعرية ، وكثيراً من الحنفية هم من الماتريدية . وهذا موجود في أكثر البلدان الإسلامية ، بما فيها من جامعات إسلامية ومعاهد علمية ، حيث سيطر عليها الأشعرية والماتريدية ، فجعلوا مناهج دراسة العقائد هي المناهج الكلامية ، بل وأصبح علم التوحيد نفسه عندهم يسمى علم الكلام ، وأطلقوا على علمائهم الأشعرية والماتريدية لقب أهل السنة ، فهم أصحاب السنة عندهم ، وأما السلف الصالح فهم الحشوية والمجسمة ، إلى غير ذلك من هذه الألقاب ، فالله المستعان .

(ز) التقويم :

للإنصاف يمكننا القول بأن ابن كُلَّاب أقرب إلى أهل السنة من متأخرة الأشعرية ؛ ولذلك عدَّه كثير من أهل العلم من متكلمة أهل السنة ، والرجل كان من أهل الإثبات في الصفات ، وإنما وقع فيما وقع فيه من مخالفات حين أراد نصرة مذهب السلف بالأدلة العقلية فوقع فيما وقع فيه . فهم - أي الكُلَّابية - أقرب

---

(١) الملل والنحل (٨٩/١) .

المتكلمين إلى أهل السنة ، ولكن على الرغم من ذلك فقد أنكر كثير من السلف عليهم إنكارًا شديدًا ، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، فقد حذر منهم ، وكان له مواقف مشهورة من الحارث المحاسبي ، مردها إلى خوض هذا الأخير في علم الكلام ، وقد ذكر ذلك المترجمون للمحاسبي [١] .

وممن أنكر عليهم كذلك الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة رحمه الله تعالى ، الذي أنكر بشدة على اثنين من تلاميذه كانا يقولان بمذهب ابن كلَّاب : أن الله تعالى لا يتكلم إذا شاء متى شاء وأن كلامه أزلي . فوقعت بينه وبينهما خصومة شهيرة ، واستتابهم من أقوالهم هذه [٢] .

وممن أنكر عليهم أبو عبد الرحمن السلمي ، الذي كان يلعن الكُلَّابية [٣] .
ومنهم أبو نصر السجزي ، وكان يلعن الكُلَّابية [٤] ، وغيرهما [٥] .

(ح) مراجع للتوسع :

(١) مقالات الإسلاميين . لأبي الحسن الأشعري .
(٢) الكُلَّابية وأثرها في المدرسة الأشعرية . رسالة دكتوراه في كلية أصول الدين ، قسم العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر بالقاهرة .
(٣) موقف ابن تيمية من الأشاعرة . د . عبد الرحمن بن صالح المحمود .
(٤) فهم القرآن . للحارث المحاسبي .
(٥) درء تعارض العقل والنقل . لابن تيمية .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) تاريخ بغداد (٢١٤/٨) ، ميزان الاعتدال (٤٣٠/١) ، الكامل في التاريخ (٨٤/٧) ، تلبيس إبليس (ص ١٦٢) .
(٢) درء التعارض (٧٧/٢) ، والسير (٣٧٧/١٤) .
(٣) نقلاً عن درء التعارض (٨٢/٢) .
(٤) رسالة الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص ٨٧ ، ٨٨) .
(٥) درء التعارض (٨٣/٢) .

فهرس الموضوعات